حول الحقيقة والخيال .. والحس الواقعي

والحس النفسي لدى امراء الشعر العباسي

محمد عدنان الخطيب

فطر الانسان على ان يكون خياليا يكسب الابعاد آفاقا ، والحجوم ظلالا ، بها تثقلت نفسه لتروي ظمأها الى معانقة المجهول .. المجهول ذلك المرتبط بالحلم الذي تمعن فيه كل طلب شفيف يرد نهمها ، ويشبع توقها نحو الامثل والاسمى وخلق الانسان ساميا محبا للسمو ولهذا سارت به الحياة نحو الاجمل وسار بها نحو ذلك خادما لجسمه الطالب للراحة ، ولنفسه الطالبة للسمو والارتفاع ابدا ، وكان وصي الله في ارضه ، يسعى ذلك المسعى النبيل .

ولقد حمل واجبه هذا وسار به شاعرا ام غير شاعر ، فهو في كلتا الحالتين متسام يطلب جوهر الاشياء ، ويسعى للكشف والمعرفة والعلم ، وهدفه ابدا ان يكون جميلا .

وان سعيه الحثيث وجذوته المتوقدة المتوفزة فيه لنيل ذلك دفعته للخروج على الواقع ، والانفلات منه ، لعدم اقتناعها به كافيا لطلبها الجميل ذلك ، وأخذت تداعب نسمات خيالها ، وشذرات شجوها ، ولامست ذلك التوق الدافق الدافىء في امتداد خيالها ، وزادها في ذلك امعانا موقف حياتي تعيشه وتنطلق منه متأثرة ، لتسكب دخيلتها في جنبات فسحتها الخيالية تلك التي جعلتها ملجأها .

هذا ولقد عرف الشعراء بسعة تلك الفسحة ، وتعميقها ، ولعل جهد الشاعر هو السعي وراء الغائص وكشف الخبيء المنستر في ذلك البعد الغفير ، لذلك فهو مقصدنا ومراحنا لأننا نجد لديه الذخر الخيالي الذي نطلبه ، فالشاعر ، أبدا ، يسعى مع الخيال متناولا عبره كل شيء يحياه ، وليس الخيال ضربا من العبث واللهو وبعثرة الاشياء ، انما هو فضلا عن جماليته يحتوي الجوهر الكامن في ذهن الانسان للاشياء المسميات التي يراها ، والتي يتناولها ، انه يحمل الصورة المثال للشيء المصور وللافكار .

وعلمنا بشعراء كثيرين قد وصلوا في تخيلاتهم للواقع مبلغا ساميا ومزجوا بين الحقيقة والخيال مزجا يخترق الحجاب المادي القائم أمام شفافية نفوسنا وارهافها ، ويروي بها ذلك التوق الحميم الى الإلق المسكوب في شرفة الامل، ويبرز لنا المتنبي قمة في ذلك ، في العصر العباسي ، فقد استطاع بعظمة نفسه وأمله الجامح ان يأتي بعظمة الصورة ، ويجسد الشعر نبضا حيا يجمع قوة العقل وارهاف الشعور في آن واحد ، وها هو يقف واصفا لسيف الدولة وللجيش وللاعداء بهذه الصورة الخلابة فيقول :

صدمتهم بخميس أنت غرته
وسمهريته في وجهه غمم

فكان أثبت مافيهم جسومهم
يسقطن حولك والارواح تنهزم

والاعوجة ملء الطرق خلفهم
والمشرفية ملء اليوم فوقهم

اذا توافقت الضربات صاعدة
توافقت قلل في الجو تصطدم

*

فهو في هذه اللوحة يأخذنا عن الواقع المصور الى الافق الذي رسمه ،والى تلك الشفافية المتلمحة من بين نبض حروفه وقوة سبكه ، وانصهار المادة في ايحاء

النفس الشاعرة . وعهدنا بتلك النفس متعالية أبية لا ترضخ للزمن ، ولا تلين أمام النبوات ، بل حسبها الموقف الحر العظيم المؤتلق ، ورهبة الشخصية ،ابدا، لذلك يأتلف مع الموقف المحموم بالنصر أكثر ، وتخرج لديه الصورة حادة متوهجة بنبض روحه المتسامي الجياش ، وتبدو روحا حيا يفوق الجسد الذي صدر عنه ، جسد الواقع .

فهنا صدم بالعزم الاكبر ، بحر زاخر حاشد يمتد بغمامه وكثافته حتى ليشمل الابعاد كلها ، فلا تملك الارواح الا الهزيمة مذعورة ، وتبقى الاجسام أشلاء ممزقة تتطاير رؤوسها متصادمة في السماء لكثرتها .

تلك هي اللوحة بما يصحبها من روعة في السبك ، وانما هي ناطقة فيها جماداتها ، حية في أجزائها ، فتبدو وفيها عنفوان الفعل الاقدر .

واذا ما انتقلنا الى ابي تمام ، المؤثر الفعال في المتنبي اذ خلقه قمة في التصوير الحي ذلك ، نجد عنده ذلك الشأن المتألق ، ولقد كان رائده ، ومن قصيدته فتح عمورية نقتطف هذه الابيات التي يخاطب فيها المعتصم فيقول :

لقد تركت امير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب
ماربع مية معمورا يطيف به
غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب
ولا الخدود وان أدمين من خجل
أشهى الى ناظري من خدها الترب

بهذا الابداع يعبر ابوتمام فليست المعركة ضربا وقتلا، وسيفا وخيلا وليست النتيجة تدميرا ودما ، وخسارة ونصرا ، انما هي عند أبي تمام ، فوق ذلك، صورة نابضة حية متدفقة بألق روحه ، اذ ان الموقف هو موقف عز وفخر .. موقف نصر يعني أبا تمام تماما فيبرزها لنا بحلة أقرب الى الشفافية واللدانة منها الى المادية والحسية ، أصبحت المعركة نورا واشراقا ، وسحا متفتحا عن النتيجة. تلك ، ولم تعد ظلاما وحلكة ، وانبهاما ودهشة ، انما هي الآن بنتيجتها ضوء آسر يكشف النصر ألاقا منيرا يملأ الافق بالنور ، والروح بالارتواء والبهجة ، لذلك يصدر أبو تمام عن نفسه بهذا الاشراق ، ويعكس لنا الصورة بهذا متحركة نيرة ناطقة بسر نفسه الدفاق ، وتمضي الاشياء ، والمناظر لديه كلها في غير صورتها في الموقف ذلك ، تبدو حياة تزخر بالروح والمتعة حتى ان خراب عمورية يبدو في ناظريه صورة للخفر والغزل ، ويتصورها فتاة محط اللهفة والارتواء ، انه يسكب فيها توق روحه ذلك وسعادته ، ويودعها نبضه الحار المتوهج بخلابة النصر .

وأبو تمام يلخص لنا انطباعه ويكشف لنا في بيته التالي :

وحسن منقلب تبدو عواقبه
جاءت بشاشته عن سوء منقلب

فالاشياء لديه اذ ذاك مشرقة بالبهجة والحسن رغما من انبعاثها عن موقف خسارة وربح .

ان خياله المستمتع ، وشاعره البهيجة تأبى عليه ان تتقيد بالمادية الجافة أمامها ، بل تطلقها أفقا حيا جماليا مشرقا يروي جموحه الروحي السامي ذلك ويتلاءم معه وذلك شأن الشعراء .

ويأتي البحتري نغما حزينا منبعثا من بين أكتاف المصاب الفج الذي منيت به الدولة الاسلامية العباسية بالفتنة وقتل المتوكل .. ولقد كان البحتري شاعره وجليسه ، فالمحنة محنته والمصيبة مصيبته ، وليس الا الرحيل والغربة ، وهناك عند ايوان كسرى يقف .

لقد هرب من الالم والخيبة ،لينسى ويتسلى غير أنه حط في موضع الحزن ، وقادته نفسه الى حيث تروي نقعها المتألم فبدت الحياة حوله دمعة جامدة تلامس روحه الحزين القاتم :

حضرت رحلي الهموم فوجهت
الى أبيض المدائن عنسي
أتسلى عن الحظوظ وآسى
لمحل من آل ساسان درس
أذكرتنيهم الخطوب التوالي
ولقد تذكر الخطوب وتنسي

ولعله طلب جلاءه لسواده وعتمته في " أبيض" المدائن غير انه التوى باللوعة تلك ، وغدا الجرماز وهو قصر ، بالصورة التالية :

فكأن الجرماز من عدم الانس
واخلاله بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالي
جعلت منه مأتما بعد عرس

وتغتلي اللوعة فيه حتى تلامس الصور فتحييها مواسية :

ومرارة الحزن فيه تجسد لديه الصور ـ صورة المعركة والرجال وانطاكية أمامه، حية حزينة تشارك روحه ذلك الدفق الشجي المتألم ، وطبيعي في الانسان ان يطلب المواسي والرفيق في موطن الحزن وخاصة اذا ما اعتمل من موقفين هما موقف الحزن الذي حل به بالشاعر جراء المصاب ، وموقف الحزن من مرور الزمن وانصرافه على اولئك المنصرفين الغابرين .

ان الموقف مزدوج مفتول ينضج الحزن مردا في نفس البحتري ، وكانت قد شاركت في انضاجه ـ فيصرفه الحزن ليتصرف من خلال بوحه النفسي بالشكل هذا :

يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس

وفي موقفه هذا يجد البحتري المدام سلوة ومسليا وصارفا عن الضنكة تلك .

انها الاخذة باللب عن التفكير والالم ، فيتداعى فيها خياله ويجذبها اليه عبر من يحنو عليه ، انبه ، ومن يعنيه في موقف الشدة ، ولعله تداعى الى الخمرة طلبا للحياة اذ تجلت مولية أمامه ، وحسبه أن يتخيل فيتمثل موقفا معاكسا لواقعه اذ يقول :

قد سقاني ولم يصررو
أبو الغوث شربة خلس
من مدام تظنها وهي تجم
ضوأ الليل او مجاجة شمس
وتراها اذا أجدت سرورا
وارتياحا للشارب المتحسي
أفرغت في الزجاج من كل قلب
فهي محبوبة الى كل نفس

غير انه لم يلبث أن يفيق من جنوحه الفار النهم هذا ، ليعلم انه في حلم مطبق على الشك ، وما الحقيقة الا الكآبة والنحس وثقل الايام ، ولم تستطع الخمرة أن تعدل لديه اهتزاز نفسه وقلقها ، بل ان هذه النفس تتفلت برود فعل عنيف كاشف لذلك الالق الاليم ، وعبر عبارة " كلكل من كلا كل الدهر مرسي ، تكشف عن التبرم والالم فيها ، وتشنجها بذلك الضغط والثقل ، ولقد برز الدهر جسدا ضخما ينوء أمامه كل جلد صبور ، وذلك من خلاله خياله المتصادم المهموم بفعل النفس الطافحة بالخيبة والتبرم .

غير أنه يلتفت ليشد من ازر نفسه في الجزء الاخير من قصيدته هذه ، فيذكر موقف نصر سابق لأجداده ، وكان قد بدأ القصيدة مفتخرا بنفسه ، وصفها بالمتانة اذ كانت عائدة من الفاجعة ، ولعله قصد بناءها ، ولم شملها أيضا في نهاية المطاف .

وجدير بمن علت به نفسه ان يتحايل لها ، لطرد كل مثبط لعزمها ، ويبيت البحتري نغما ينساب بين اللين والحدة ، وبين الرضوخ والنشوز من خلال نفسه المتألقة الشاعرة ، وخياله المترافق معها في انضاج هذه البديعة ، فخرجت لاهفة نابضة بشجاه وكآبته وبرزت الصور حية قادها خياله خدمة للنفس الجياشة تلك .

وبعد فاننا نجد ان الشعر نتاج نفس متخضبة بأحداث الواقع ، وخيال منطلق من بين أكناف الحس ، لقد تجسد الخيال والحس النفسي بأحسن صورهما الشعرية ، وأجلها لدى فحول الشعر العباسي هؤلاء فكان شعرهم أنشودة الحياة .

محمد عدنان الخطيب

لايقل ذكاء المرأة عن ذكاء الرجل . ولكنها اقل منه شعوراً . اذا كان في المرأة ما قل نموه من ملكات النفس فليس هو العقل بل الحساسية . والمقصود من الحساسية الحساسية العميقة ، لا الهيجان السطحي والاضطراب الظاهر .

هنري برغسون

قراءة في انشودة المطر للشاعر الكبير بدر شاكر السياب

بقلم: عطية الحسين

ويعود موسم الامطار ، والمطر حضور في البال يشبه لثيث الحزن والوحدة في ذات العاشق المنتظر عند بوابة المواعيد البعيدة والمنسية في ارصفة الليل الطويل ، وفي نافذة العشق المعمد بالتفاني والاخلاص لكل مفردات المعشوق ، بصبر طويل ، وتجلد عظيم .

وللمطر عند السياب نكهته الخاصة ، وايقاعه العظيم على اديم الارض التي كانت امطار الثورة لم تغسلها بعد ، ارض السواد بشكل خاص ، وعلى امتداد الوطن العربي بشكل عام ، هذا الوطن الذي تقلب على — سمفونية — الالم والعذاب ، وشرخ بالتمزق والضياع ، حتى صارت الغربان السود تتكالب في **عليائه بلا رادع او حدود .**

ان للممعن في رائعة السياب — انشودة المطر — يجد نفسه — كلما عاود القراءة لهذه القصيدة — امام شيء جديد وتتكشف امامه حقائق جديدة عما كان يعانيه الشعب العربي في العراق ويتكشف عالما مجهولا ، فيه شيء من الغرابة والدهشة ، تمتد في اعصابك وتتراكض في لثيث دمائك شيئا يشبه الصوت القادم من البعيد يحثك ، يدفعك نحو عالم من الدهشة والانبعاث ، يزرع فيك الالم الشفيف .

هذه الاحساسات ، هي المعادل للترابط — العضوي والاخوي ، مع ماكانت تعانيه مجموع الشعوب العربية في العراق ، وخارجه التي يمكن ان تكون الصورة الصادقة عن كل فرد عربي ، وفي كل ارض عربية ، وهذا ايضا تجسيد للانتماء والانصهار ، والتراب للانتماء والانصهار ، والترابط بالاماني ، والتطلع نحو غد افضل اكيد . كما سيجيء في انشودة المطر . حيث تبدأ بما يمكن تسميته بالنشيد او بداية نشيد الثورة ، التي يصرخ فيها الشاعر من الاعماق فيعطينا بعدها — اي الثورة — الملحمي مجسدة بما تصنعه الجماهير ، وهنا تكون القصيدة الصورة الحقة لتطلعات شعب مات فيه كل حس حياتي ، فينهض من تململه الفوضوي ، ويزرع الدروب بالثورة . وهنا يأتي الشاعر بصورته الفردي متمثلا ، وممثلا كل هذه الشعوب المظلومة يخاطب الثورة :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
او شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان ، تورق الكروم
وترقص الاضواء ... كالاقمار في نهر

يرجه المجذاف وهنا ساعة السمر
كأنما تنبض في غوريهما النجوم

والمطر — الطبيعي — والمهوس — والذي يعتبر المعاول للثورة بالجماهير الصاخبة رتابة خاصة ، وسقوطا معينا ، يخلق في النفس اشجانا حزينة تتوالد في الاعصاب والدم ، وتتكامل



في الروح ايقاعا بعيدا يشبه الحنين ، هذا ببعده الطبيعي أما ببعده الملحمي – الثورة فانه مدمر يقتلع جذور السحاب الاسود المطبق في سماء العراق المتمثلة انذاك بالسلطة المتسلطة على رقاب الجماهير الفقيرة :

فتستفيق ملء روحي ، رعشة البكاء
ونشوة وحشية ، تعانق السماء
كنشوة طفل اذا خاف من القمر
كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرة فقطرة تذوب بالمطر

هذا المطر – المعادل للثورة جاء ليحرك كل عناصر الحياة وليدب فيها الحركة والاندفاع نحو التغيير الافضل للواقع الذي هو كائن من خلال البعد الزماني والمكاني له – أي في تلك الفترة القاسية من الظلم والاضطهاد وعلى امتداد الارض العربية :

ودغدغت صمت العصافير على الشجر

انشودة المطر
مطر ..
مطر ..
مطر ..
تثائب المساء ، والغيوم ماتزال
تسح ، ماتسح من دموعها الثقال

وكأن السياب ، يريد أن يصور لنا خطوات الثورة التي يجب أن تكون أوهي كائنة لامحالة فيتقدم لها ، ويصور لنا عوامل انبعاثها بعد رقادها الطويل – نومة اللحود – وهذا الانبعاث جاء نتيجة السخط ، ومن خلال عملية تجاوز القدر المنكوب الذي تعودت كشعوب مضطهدة تلوذ به من خلال عجزها على التغيير او التبديل بما يجب أن يكون ، وفي هذه اللحظة – أي لحظة الكفر والتمرد بالقدر وعليه – عندها يتساقط المطر مسترسلا حبائله الطويلة الغزيرة ممزوجا بجلجلة الجماهير وهتافها :

كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام
بأن أمه – التي أفاق منذ عام
فلم يجدها ، ثم حين لج في السؤال
قالوا له : – بعد غد تعود –
وان تهامس الرفاق انها هناك
في جانب التل تنام نومة اللحود
تسف من ترابها وتشرب المطر
كأن صيادا حزينا – يجمع الشباك
ويلعن المياه والقدر .

أجل يرفض القدر الذي من خلال التمسك به اعطى هذه الصورة من الظلم والتسلط اللذين لامثيل لهما .

وهنا يعود السياب ليعطينا الصورة المقابلة والمرادفة للمطر ، أي البعد الحقيقي – الطبيعي – فا البعد الطبيعي والبعد الرمزي يلتقيان في قاسم مشترك واحد هو العطاء والخلاص – الخلاص من الجوع والفقر والتشرد والخلاص الثاني – من الظلم والاضطهاد من افراد السلطة الحاكمة في ذاك الوقت ، والقضاء عليها وما من وسيلة الا بالثورة بمثل هذه المواقف

أتعلمين أي حزن يبعث المطر
وكيف تنشج المزاريب اذا انهمر
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع
بلا انتهاء – كالدم المراق ، كالجياع .
كالحب والاطفال ، كالموتى هو المطر .

هذا المطر الذي يصنع الغلال والخصب والعطاء ، والذي كان بعدا للثورة يمكن ان يدمر المواسم ليكثر الجوع والفقر والضياع . فيوجد الاف المهجرين :

وينثر الغلال موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر

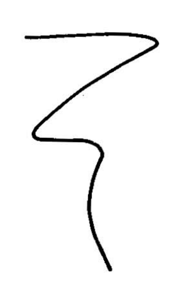
والسؤال الكبير والمهم الذي يحمل نوعا من الغرابة والدهشة على لسان الشاعر : انه رغم توالي المطر في كل عام ، وانتشار الخصب والمواسم يظل العراق على جوعه ، وفقره ، وحرمانه :

ومنذ أن كنا صغارا ، كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر
وكل عام – حين يعشب الثرى – نجوع
مامر عام و العراق ليس فيه جوع .

سؤال مرير ، يدل على استلاب الجماهير من حقها ومن كرامتها ، لان السماء سواء أمطرت ، واخصبت الارض ، أو لم تمطر فالنتيجة واحدة ، لان في العراق الف أفعى تنفث سمها الحقود ، وتبتلع خيراته الكثيرة ، وتستغل أبناء شعبه أبشع استغلال لذلك لابد من التفاؤل الاكيد بأن كل شيء يتغير ويتبدل وان:

في كل قطرة من المطر
حمراء ، أو صفراء من اجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديدا
جديد !

عطية الحسين





المبروك خشيريف

الديك الهارب

" هرب الديك "
لقد هرب الديك يا امي
لقد طار الديك ، وقفز بين السطوح ، ها هو يجري متنقلا من سطح لاخر ومن زقاق الى زقاق ، واخوتي يطاردونه ، يجرون وراءه يرتمون عليه يقفزون هم ايضا بغية تحصيله ومسكه ، لكن كل مرة يفلت من بين ايديهم يريد الهروب ، يريد ان يهرب يا امي رغم العلف ، رغم الطعام والشراب ، رغم الدلال احيانا ، لكن من اين الدلال وليس لنا من الطعام مايكفينا احيانا .

هروبه يساوي الف طعام والف حبة قمح ترمى اليه ، ونبشه الارض بمنقاره وقوائمه خير له من الف حبة قمح ترمى اليه وتوضع امامه ، وانطلاقه وتنقله بين السطوح يشعره بسعادة عظيمة رغم المخاطر التي يعترض اليها او قدتعترضه لكن هؤلاء الصبية ماذا سيقولون وقد ضاع منهم ديكهم ، هرب منهم ولم يعد ؟

والام كيف ستصبر على ديك ألفته وألفها كانت تراه صباحا مساء في كل حين متنقلة في فناء المنزل الذي لا يكاد يسع افراد اسرتها. انه الحنان . انه الحب تحبه كثيرا ، تهواه كثيرا .. انه وجودها .. انه كيانها ..هيا ابحثوا عنه .. ابحثوا عنه عند الجيران .. فلا تيأسوا ..

لكن الديك ضاع ولم يعد ، لقد فر ..لقد هرب .. لقد اختفى لعله بين دجاج كثير وكثير ، لعله وجد طعاما كثيرا ، طعاما احسن كما ونوعا .. لعله وجد حنانا وعطفا وحبا اعمق .. لعله وجد محبة خالصة لعله .. لعله ..

المهم ان الديك هرب ولم يعد ، ولن يعود تقريبا عص وتنكر وثار وجحد . تنكر وثار وعص وجحد .
فهو اذن لن يعود ..

لن يعود يا امي .. لقد ابتعد كثيرا .. هرب . هرب .

كل صبية الحي عجزوا عن " تحصيله " جروا وراءه ، رموه بالحجارة ، نصبوا له الشباك ، ألقوا عليه الشراك ، ارتموا عليه .. عرضوا أنفسهم للخطر ، خيل اليهم انهم حصلوه .. لكنه كان كالزئبق ..كالشبح .. كان شبحا حقا فهو يظهر ويختفي سريعا .. كان زئبقا حقا : خفيفا في تحركاته ، سريعا في تنقلاته ، سريع الاختفاء ، سريع التنقل .. انه يطير .. يطير .. يطير ..

رأيته يطير يا أمي .. يطير ولا كالدجاج .. يطير و لا كالديوك .. يطير ولاكالطيور عجيب طيرانه .. فكأنه صاروخ من اين أتته هذه القدرة ؟ من أين جاءته هذه القوة ؟ من اين استمدها ؟ من اعطاه اياها ؟ .. أمر محير ، محير امره حقا .

انه الحزم .. انه العزم .. انها ارادة الحياة .. لقد فر لانه يشعر انه سيذبح يوما .. غريب يا امي .. فكأنه عصفور خفة وشطارة كأنه طائر حقا .. مارأيت ديكا مثله ولا طائرا .. العجيب انه يقفز بين السطوح ولا خوف ..ينتقل و لا

قريبا سيعود .. وها انا سأبحث عنه .

- لا تخرج .. لا تخرج .. اريدك بجانبي بجانبي اريدك .. انك ستهرب انت ايضا.. اني احبك .. لا تزدني الما على الم ..

- لا .. لا اهرب يا امي انا دوما بجانبك .. بجانبك سأبقى .. وسأبقى معك على طول يا امي ..

سأفديه هذا الديك يا امي .. ستكون الفدية دجاجة .. دجاجة سمينة .. سمينة جدا تنسيك ديكك ..تشبع الاطفال لحما .. سيشبعون لحما ، وستعدينه انت . وان لم تستطيعي فسأطبخه .. انا سأعده بنفسي وستجدينه لذيذا حقا .. الفدية دجاجة سمينة يا امي ستكون احسن من دجاجتك .. ستكون لذيذة .. لذيذة جدا ..

في آخر الشهر تكون الفدية بين يديك بين يديك انت .. ستذبحينها ولا تشربين دمها بل تأكلين لحمها .. ستشبعين منها ونحن ايضا..

وعاد اطفالها اليها في المساء ..اتعبهم البحث .. أتعبهم الجري .. أتعبتهم الملاحقة .. لاحقوا ديكهم في كل مكان لكن دون جدوى جلسوا حول امهم يستريحون .. يستريحون من عناء يوم كامل ..جلسوا يطلبون منها الطعام .. لقد جاعوا .. لم يطعموا يوما كاملا ..

تذكرت هي انها لم تحضر طعاما .. انها لم تقم من مكانها هذا .. ان الطعام غير جاهز فماذا ستقدم لهم .. عليها ان تدبر امرها بسرعة ..

- انتظروا قليلا يا اكبادي .. الطعام سيأتي .. انتظروا قليلا .. انتظروا ..

وعرفوا ان امهم لم تحضر طعاما ..الحزن على الديك سيطر عليها .. انساها طعام اولادها .. قد يكون .. الاولاد سيثورون، سيثورون عليها لانهم بدون طعام..

لكن اخاهم الاكبر نظر اليهم .. حدق فيهم .. رمى اليهم بنظرة .. ومع هذا ارادوا ان يثوروا .. فقام فيهم .. فسكتوا .. وجاءهم الطعام .. او هم ذهبوا اليه .. ومدوا ايديهم في تثاقل وتباطؤ في وجوم ، وعيونهم تحملق في وجوه بعضهم تنتقل من وجه الى وجه كأنهم يبحثون عن شيء ..

عجيب كيف يسكتون وقت الطعام ، وما اعتادوا .. لكنهم لم يكلفوا انفسهم عناء الجواب .. هل التفكير في ديكهم سيطر عليهم وتركهم في وجوم ؟

فلقد حرموا من لحمه .. حرموا من طعامه اللذيذ .. وهم في حرمان ..ودوما في حران ..

وقال اخوهم الاكبر :
- نعم سنفديه بدجاجة سمينة وسمينة جدا ستشبعكم لحما .. ستشبعكم طعاما ستشبعكم حبا وحنانا .

ومرت الايام .. وافراد العائلة في سكون.. وفي وجوم .. ربة البيت حالها معلوم .. يجمعهم ليل ثقيل ، لا يحلو فيه سمر او سهر .. ام ساكتة واخوة في ركن بيت من حين لاخر ، يزيحون السكون بقهقهة .. بصيحة عالية او بصراخ ثقيل .. او آهة صادرة من ام تنفس بها قليلا ومعبرة - في نفس الوقت - عما تحسه داخليا وما تكابده من آلام .

ويفرقهم يوم .. بل يتفرقون في يومهم

كل له وجهة .. الاطفال في الشارع مع اطفال الحي يتقاذفون الكرة ..يتجارون، يتصايحون .. اويلعبون لعبا شعبية تنسيهم ما يقاسونه ليلا .. تنسيهم واقعهم الذي يعيشونه ، وان كان اطفال الحي وأترابهم وأصدقائهم يتندرون عليهم من حين لاخر .. ويذكرونهم بأمر الديك الهارب .. العاصي .. الثائر ..

واخوهم الاكبر يقضي ايامه هو ايضا في عمل اضناه واتعبه .. وقوس ظهره وما قومه.. وزاد في ألمه ما تكابده الأم من الآم .. وما يقاسيه الاخوة من حرمان، وما يعانيه هو من شظف العيش .. ومن ايثار في سبيل اخوة تتزايد طلباتهم بتقدم الايام ، وتقدمهم في العمر .

ويواصل طريقه ومانسي الفدية .. وما تناسى الاخوة ذلك ايضا فهم لا يفتؤون يذكرون اخاهم كل رأس شهر ، وام ماتزال مصرة على ذلك عند حلول كل شهر .. وما تملص هو فكان دوما يرجيء الامر الى فرصة اخرى يعللهم ، يصبرهم ، يستمهلهم وان كان من حين لاخر يدخل عليهم موزعا بعض قطع الحلوى او بعض الفطائر الرخيصة الثمن والرديئة الصنع ايضا .

اذن ..؟

لماذا جرح شعوري ؟ لماذا خدش كبريائي؟

لماذا عفر وجهي في التراب .. لقد اذلني بين الناس .. اهانني .. ماذا سيقولون عني .. لقد تسامع بهروب ديكي كل الناس .. كل الناس سمعوا بهروبه .. لقد هرب .. وما كتمت امري .. هرب وأفشيت الامر بين الناس .. يا ليتني سكت ولم اذع الخبر وابقيت الامر سرا بيني وبين نفسي .. فما ضرني لو سكت ، ولم اسمع غيري بالخبر .. أتراهم يسمعون .. الخبر لا بد ان يذاع ، الخبر لا بد ان يشاع .. الخبر لا بد ان ينتقل كالهواء ، يسري .. ويسر ي ..

عجيب كيف يسري .. غريب كيف تسري بين الناس الاخبار ، كيف يذاع الخبر وينتشر .. تحكم القناع .. قد تحكم غلق الاقفال ومع ذلك فالخبر تسمعه ولا اسمعه ، يرد على اذنك ولا يرد علي "

وأقبل عليها صبيتها يتجارون ويدخلون عليها واحد تلو الاخر .. يصيحون .. وجوههم تهلل بشرا .. السرور يطفح على وجوههم .. وجوههم تطفح مرحا ..

- لقد رأيناه يا امي .. لقد رأيناه ..

- احقا يا ابنائي .. أين هو ؟ هل قبضتم عليه ؟

- انه بين ايدينا ولا نراه ..انه امام اعيننا ولا نلمسه ..انه هنا وهناك .. في كل مكان .. في هذه الدار .. في هذا المنزل .. في هذا الركن .. وفي هذا الحي اختفى ، ومن هذا الحي حيانا .. ومن هنا خاطبنا .. لكنه امتنع ان يعود يا امي امتنع ان يعود الى داره .. امتنع ان يرجع معنا .. حدثناه طويلا .. خاطبناه بالرفق .. باللين .. اغلظنا معه القول .. هددناه .. هددناه يا امي بالقتل .. بالذبح ..استدرجناه .. قلنا له ان امك في انتظارك .. انها تموت شوقا اليك ، وتذوب حنينا اليك .. ستحضر لك طعاما وغذاء .. ستحضر لك طعاما لذيذا ، وأكلا شهيا .. سنلبي رغباتك ونحقق طلباتك فلماذا حرمتنا .. حرمتنا .. نحن في انتظارك يا ديكنا العزيز .. لكنه قهقهه عاليا .. ضحك طويلا .. طويلا .. عاليا .. ضحك واختفى .. اختفى قائلا .. حيوا امنا العزيزة .. بلغوها تحياتي .. بلغوها اشواقي .. أنا مشتاق اليها كثيرا .. فأنا أحبها .. احبها كثيرا .. يا ليتني بين احضانها .. لكن سوف لن أعود ..ولن اعود اليها لقد اخترت .. بل وقع على الاختيار ، هناك من لم يتركني ارجع .. لقد استبد علي كثيرا .. طوقني من عنقي .. طوقني بسيور من حديد .. بسياط .. طوقني يا امي .. دجاجة سمينة طوقتني .. طوقتني دجاجة سمينة أخذتني .. كبلتني ..قيدتني .. هكذا قولوا لامي .."

قالت أمهم :
- هيا اقبضوا عليه ، عودوا اليه ..

وخرج من عندها صبيتها الى الشارع من جديد ، تلقاهم الشارع بصياحهم وهرجه وضوضائه ، وضاعوا بين الازقة كماضاعت اصواتهم بين دوي السيارات ، وضاعت السيارات بين الصبية الذين تركوا امهم وهي تتوسل اليهم للبحث عن ديكها .. ديكها الذي عصر قلبها فأفزعها .. وروعها .. روعها لانها تحبه كثيرا.. تحبه كثيرا .. كثيرا لكنه هرب ...

ودخل عليها ولدها الكبير .. ماذا ؟ ؟ وجدها حزينة .. ساكنة .. شاردة ..مابك يا امي .. لكنها لم تجبه .. لم تجبه .. سكتت .. صمتت .. وجهها يجيبه .. يعبر عن كل تعب .. يعبر عما يجيش في نفسها في صدرها .. يعبر عن مدى حزنها وتأثرها .. عن عميق التياعها ،

لكنها لم تصمت طويلا فانفجرت ، انفجرت .. خرجت الكلمات سريعة ..سريعة ..سريعة حتى انه لم يفقه قولهابادئ الامر ..

- الديك .. الديك .. هـ ..ر .. ب ..
- الديك ؟ ما به الديك .
- الديك هرب .. هرب الديك .. الديك هرب يا ولدي ..

حرك الولد رأسه .. التفت يمينا .. يسارا .. التفت وكأنه يبحث عن شيء.. كأنه يريد ان يقول شيئا .. لكنه سكت وطأطأ رأسه .. كأنه يفكر .. يفكر.. يفكر بماذا يخاطب امه .. امه يحبها كثيرا .. يقدسها .. يحترمها .. يجلها ..وهي اغلى ما عنده في الوجود .

لكنها اخرجته من صمته :
- قلت لك الديك .. هرب .

- نعم يا امي الديك هرب .. وكل الديكة ستهرب .. ستهرب الديكة لكن ديكنا سيعود .. سيعود ديكنا ..سيعود يا امي .

وجل .. يقفز ولا خشية كأنه جن يا امي ولا شك..؟

رأيته يقفز بين سطحين متنقلا والمسافة بينهما بعيدة يفصل بينهما شارع فسيح .. والاطفال من اسفل يصيحون .. يخيفونه .. يرعبونه عله يقع ارضا فما وقع فكأن حافزا قويا يدفعه الى الهروب .. الى القفز .. لكن اين هو الديك ؟ اين هو ؟

اريد الديك .. اذهبوا .. عودوا للبحث عنه .. لا اريد وجوهكم بدونه ..انه ديكي .. عاش معي كثيرا .. لا تقولوا عاش معي فأنا التي عشت معه طويلا .. عشت معه سنين طويلة وعديدة .. عشت معه وما جوعته او حرمته او دعوته الى الحرمان .. لا .. لا .. انه سمين .. سمين اني أطعمته .. اطعمته ولا تسل عن نوع طعامه ولا تسل عن الكيف والنوع والكم ..
المهم اني اطعمه ولا اجوعه ، اطعمته وما جوعته ، المهم انه لا يجوع.. لا يجوع .. ابدا .. فهو يأكل ويشرب ، يشرب ويأكل وينام .. ينام كغيره من بني جنسه .. ويأكل كغيره .. ويقدم له الطعام كغيره ايضا .

آه .. ياله من ديك عنود ، عاص ..شرود لم ارى مثله قط ، اه لو اقبض عليه ..

لو تقبضون عليه يا صبيتي لرأيتم مني العجب .. قطع الحلوى ستوزع عليكم ... قطع النقود البراقة ستلقى بين ايديكم .. ارجعوا للبحث عنه .. أريده حيا . . نعم حيا لآكل لحمه .. لأذبحه .. لاقدمه طعاما لكم ..

آه ياصبيتي .. ارجعوا للبحث عنه . . اريده حيا .. اريد سماع صياحه ..اريد سماع آذانه مع الفجر ومع المغربه واثناء الليل .. اريده يؤذن فيوقظني ويوقظ الجوار ، فعلى آذانه يقومون ، وعلى صياحه ينهضون ، وأنهض للعمل .. للكدح .. للدأب .. للنشاط .. للسعي.. سأسعى كما يسعى الكثير .. سأجاهد كما يجاهد غيري .. سأكدح كما يكدح امثالي .. اكدح صباحا مساء ، طول يومي وليلي .. سأكدح لاشبع نهم هؤلاء الصبية كغيري فهل يشبعون ؟ وهل يسكنون ؟ وهل سأصل من الكدح لقضاء شؤون صبيتي وارضاء طموحاتهم فقد ولى عهد " القناعة كنز لا يفنى " كل منا يريد العيش ، لكن ليست الحياة التي اعتدتها صغيرة و لا الحياة التي عشتها مع جدي وعشتها انت

مع جدك او جدتك .. فلنعش كغيرنا ، كغيرنا في كل مكان من الارض ، فلماذا يحرم صبيتي لماذا يحيون في الحرمان .. وواقعا هم محرومون .. " وسرحت مع احلامها واما نيها وتمنياتها .. سرحت مع امانيها وطموحاتها . . لكن فيالخيال ونسيت امر ديكها .. ديكها الذي فر ..

واخرجها من صمتها اصوات الصبية في الشارع وهم يتصايحون .. وطنت نمقبضوا عليه .. على ديكها .. فرحت .. أملت .. سرت وضحكت لكنه كان سرابا ..

وعادت تمني نفسها .. تمني نفسها بأكلة شهية .. بطعام لذيذ .. بمائدة تجمع شمل اسرتها يوم راحة ، يوم عيد ..يوم عطلة ..وليكن ما يكون .
سأذبحه وأقدمه طعاما لكن يا صبيتي . . ستنهشون لحمه وتمتصون عظامه انتقاما منه لانه عذبكم .. لانه اتعبكم .. لانه حيرني .. لانه .. لانه .. سأرتاح منه واريح غيري من صياحه ..

آه .. فتشوا عنه في كل مكان .. في كل دار .. في كل زقاق .. في كل شارع ..في كل حي دارا دارا وشبرا شبرا .. اقلبوا الدنيا على عقبها ..المهم ان يعود الديك .. ان يعود ديكي .. عله اختفى بين دجاج كثير .. عله اختبأ بين الديكة تأملوها جيدا .. تأملوا وتثبتوا .. ان الديكة تتشابه لونا وحجما وشكلا ..عله وجد دجاجة سمينة اختفى تحتها .. علها ضمته بين جناحيها .. عله وجد مكانا دافئا ، فشعر بالامن .. بالطمأنينة .. بالدف .. بالحب .. بالحنان .. وبقي هناك ينعم بالراحة .. يستجمع قواه ليواصل مسيرته .. لعل دجاجة اخرى احتجزته وآثرت به نفسها فاستأثرت به وضنت على غيره وعليك .."
بقيت الام حزينة كئيبة .. امتقع لونها، اصفر وجهها .. ذبلت عيناها ..عيناها ذبلتا .. وجهها اصفر .. لونها امتقع كالتراب كالمعادن .. كمعدن غير ثمين او كمعدن لم يعد له ثمن ولا قيمة . . أصبحت حزينة ، فديكها هرب ، احتجبت عن الناس امتنعت عن اقتبالهم .. لم يقابلها احد طيلة ايام ..

أكل هذا من اجل ديك هرب .. من اجل ديك فر .. من اجل ديك عصى وتمرد فهرب عنها .. تركها في الم .. في حسرة . . فلماذا هرب ؟ فلماذا عصى ؟ فلماذا تمرد ؟ الطعام متوفر .. الشراب ايضا.. الفراش موجود .. هو ايضا .. فلماذا

وخلال هذه المدة ..كان يفكر ، يفكر في طريقة .. في امر يشغل بالهم وباله .. كيف سيدخل عليهم تصاحبه دجاجته .. دجاجته التي تحدث عنها وحدث امه عنها. انها ليست كدجاجتك يا امي .. ليست بالنحيفة والهزيلة .. انها سمينة .. وليست كدجاجتك يا امي .. هل فهمت امه كلامه ساعتها .. هل فهمت ما يقصده ويعنيه .. هل تعرفت على مقصوده .. قد يكون ..

لكن ماذا سيكون المصير لو عرفت الحقيقة لو عرفت الامر ؟ لو وقف عليها عند رأسها مصحوبا بدجاجته ؟

وذات يوم والوقت بعد الظهر قرر في نفسه امرا ونفذه .. دخل ومعه قفة مملوءة .. مملوءة دجاجا .. دجاجا سمينا .. وخضرا وغلالا وفواكه .. واشياء اخرى ومن ورائه فتاة بارعة الجمال فارعة القد ، موردة الخدين ، حلوة العينين، مملوءتين حبا وسلاما وايثارا وحنانا .. و .. و ..

عندها عرفت الام ما كان يعنيه ولدها و ما كان يقصده .

صعدت فيها النظر .. قامت اليها .. سلمت عليها .. دعتها الى الجلوس حذوها بجانبها ، وفهمت الباقي ..

انها هي التي حدثهم عنها تلميحا وتلويحا .. و .. حقيقة ومجازا انها ستشبعهم ..

ستشبعهم حبا .. ستشبعهم عطفا ..ستشبعهم حنانا .. ستشبعهم محبة .. ستشبعهم ودا وسلاما ..

المبروك خشيريف

طبقات كتابنا

ينقسم كتابنا اليوم الى ثلاث طبقات قدماء ومجددون وسوقيون

فالقدماء هم الذين درسوا الادب القديم واقتصروا عليه والمجددون هم الذين درسوا

مع الادب القديم ادب لغة من اللغات الحية

اما السوقيون فهم الذين لم يدرسوا فنون الادب العربي درساً قانونياً بل اقتبسوا

من مطالعة الصحف والمجلات مادة ضعيفة نزرة هي كل رأس مالهم الادبي .

ويمتاز رجال الطبقة الاولى بالفاظهم المنتقاة ومعانيهم الضئيلة

ويمتاز رجال الطبقة الثانية بمعانيهم الرفيعة واساليبهم الرائعة

أما رجال الطبقة الثالثة فيمتازون بكل شيء سخيف .

من مفكرة المرحوم احمد شاكر الكرمي في سنة ٩٢٥

ثلوج

هرب الظل ، فالتوت رعدة ، وانهد صمت ، وغلغلت اصداء
من بياض الثلوج ، تنثر إحلام عروس ، وتنثر الافياء

الفراشات ، انسيت عهدها الابيض ، فانهلت دمعة خرساء
حطمت منها اجنحا فتهادت ، وتلاشى نثيرها المعطاء

نصلت من اكليلها البكر الوان ، وغامت في بردها الاضواء
شاقها قطف ياسمين تلوى ، ودعتها نعلة بيضاء
نشرت فرعها المهفهف ، فارتد بريق ، وهومت انداء
في بياض العيون غابت ثلوج ، وتهادى في زرقتيها الفضاء
والجبين النقي ، اصفى من الحلم واحلى ، ان جاذبته السماء

وترامت ضفيرة ، ضحك الشيب ، وجنت ، في فرقها ، خيلاء
خصلة ، خصلة ، تهاوت بعيداً ، والتقتها انامل سمراء
نسجت من شعورها البيض اكفانا ، فأوهت خيوطها الظلماء

من بياض الثلوج ، تنثر احلام عروس ، وتنشر الافياء

بديع حقي

جولة استشراقية

مع
و. ايفانوف

بقلم : الدكتور عارف تامر

قد يكون من العسير جدا على الباحث مهما اوتي من حسن الرؤية وسعة الاطلاع الوصول الى الحقيقة كاملة عن هؤلاء المستشرقين ، فبعضهم وقف حياته على خدمة هدف معين ربما ظل بعيدا عن الافهام والبعض الاخر عاش مكرسا حياته لخدمة الفكر والحقيقة والانسانية .. لهذا فان الواجب العلمي يقتضي التصنيف والتقسيم ، فليس كل المستشرقين يشربون من نبع واحد ، او يتبعون نهج محدد – وكما قلنا فمنهم من يكون صاحب غاية معينة ، او اداة لتنفيذ مهمة او مخطط سيء الهدف ، ومنهم من تنحصر مهمته بخدمة العلم والانسانية ، وقد يكون المستشرق الكبير الذي نتحدث عنه الآن احد الاعلام الذين حكموا ضمائرهم وعملوا للحقيقة وحدها .

ولد " فلاديمير الكسيفتش ايفانوف في احدى قرى مقاطعة "تاجيكستان " ١٨٨٣ وتوفي في مدينة " طهران " ١٩٧٠ . وقد يكون من الصعوبة بمكان الوصول الى معرفة سيرة حياته في بدء نشأته ، او معرفة اسماء المدرسين الذين درس عليهم او المدارس التي تخرج منها ، أو اوضاع اسرته ومركزها في المجتمع ، ويبدو ان ايفانوف نفسه لم يتطرق الى هذا الموضوع ، وربما توخى مراعاة الظروف السياسية ، وعدم التعرض الى ما اصابه ، وأدى الى تشريده من بلاده .

ومهما يكن من امر .. فهذا المقال يعتبر الوحيد الذي يتحدث عن هذا المستشرق الكبير .

عكف ايفانوف منذ الصغر على دراسة اللغة الفارسية وآدابها وفلسفتها وهذا ما دفعه في سن مبكرة الى زيارة ايران ثلاث مرات :

الاولى ١٩١٠ ، والثانية ١٩١٢ ، والثالثة ١٩١٤ ، وهذه الزيارات الثلاث تمت قبل مغادرته روسيا .. علما بانه كان خلال تلك الزيارات يعكف على الدرس والبحث والتزود بكل ما يفيد الباحث المتخصص ، وفي ١٩١٦ استطاع ان يكتب بعض المقالات عن الادب الفارسي في بعض المجلات الروسية التي تعنى بالاستشراق ، والمواضيع الاسلامية ، وتبدو انها نالت تقدير العلماء واستحسانهم فانتخب عضوا في المجمع العلمي الروسي ، وعهد اليه بالاضافة الى ذلك بتنظيم مكتبة المتحف الخاصة التابعة " لمعهد الدراسات الشرقية " وكان مقره في مدينة " سان بطرسبرج " فبذل جهودا جبارة ، وتمكن في فترة قصيرة من جمع عدد من المخطوطات الفارسية والعربية التي قدر عددها بألف وخمسمائة نسخة عثر عليها جميعا في مقاطعة " تركستان " و " بخارى " ومن الجدير بالذكر ان العالم " ساليمان " المتخصص في الدراسات الفارسية وضع نفسه تحت تصرفه وعاونه في مجهوده .

ومن الظواهر البارزة في حياة المستشرق ايفانوف انه خلال تنقيباته في المخطوطات العربية لفت نظره ولاول مرة بعض الكتب " الاسماعيلية " الفارسية المخطوطة التي رأى فيها التفكير العميق

والفلسفة الرائعة مما لم يعثر عليه في المخطوطات الاخرى ، فقرر عندئذ السعي وراء اقتنائها وتحقيقها وطباعتها، وفي ١٩١٧ ، كتب اول موجز عن تاريخ هذه الفلسفة ونشرة في احدى المجلات الروسية . ومن المؤكد ان مقالته اعتبرت في اوساط الباحثين احسن دراسة ادبية وتاريخية .

في عام ١٩١٨ اندلعت في روسيا الثورة الشيوعية الحمراء ، ويبدو ان ايفانوف لم يكن من انصارها ، بدليل لجوئه الى بخارى ، وابتعاده عن موطن النار ، وهناك اكب على تصنيف فهارس مخطوطات المتحف الاسيوي في هذه المدينة الزاخرة بكتب التراث الشرقي والاسلامي ، وبعد ان اتم مهمته لم يعد الى بطرس برج كما كان منتظرا ، بل ولى وجهه شطر ايران حيث اقام في خراسان حتى نهاية ١٩٢٠ ، وفي خلال تلك المدة عكف على التزود من العلوم والاداب الفارسية ، وخاصة مؤلفات قدماء الادباء ، وفي الوقت نفسه تمكن من الاطلاع على مخطوطات جديدة عن تاريخ وفلسفة الاسماعيلية في بلاد فارس ، كما اجرى اتصالات عديدة ومناقشات مع عدد كبير من علماء الشيعة ، ومنهم الوزير " فدائي خراساني " مؤلف كتاب " هداية الطالبين " .

في أواخر ١٩٢٣ قرر ايفانوف الذهاب الى الهند ، فاستقر في مدينة " كلكوتا " وظل فيها حتى ١٩٣٠ ، وفي اواخر هذا العام انتقل الى مدينة " بومباي " وأصبح عضوا في " الجمعية الاسيوية الملكية البريطانية " فرع " البنغال " وقد قدر اعضاء الجمعية مواهبه وعلمه فعهدوا اليه بتصنيف فهارس للمخطوطات الفارسية الموجودة في مكتبة الجمعية المذكورة ، فجاء بأربعة مجلدات كبيرة ، وبعد ذلك عهدوا اليه بتصنيف فهارس القسم العربي .

بعد هذا وفي تلك الفترة تماما اصدر نشرة سماها " " وضمنها بعض المواضيع الاسماعيلية ومقطوعات شعرية " لناصر خسرو "ولغيره من شعراء فارس ، وقد لفت هذا العمل الادبي نظر الامير " آغاخان " الكبير فدعاه اليه وكلفه الاشراف على شؤون التراث الاسلامي لقاء مخصصات شهرية كفلت له الاستمرار في اعماله الادبية ، والتوسع بالبحث والدرس والتنقيب .

وفي ١٩٣٢ قاد بأول رحلة الى " ألموت " عاصمة الدولة الاسماعيلية في ايران ، وكان في صدد تأليف دراسة تاريخية عنها ، ومن الواضح انه عاد اليها مرتين : الاولى ١٩٣٧ والثانية ١٩٦٤ ، وبعد ذلك اصدر كتابه القيم عنها .

وفي ١٩٣٧ زار سورية وخاصة قلاع الدعوة الاسماعيلية وكتب دراسة قيمة عن تاريخ هذه القلاع بعنوان " العرق المنسي من الاسماعيلية "

ومهما يكن من امر .. فخلال اقامة ايفانوف في بومباي تمكن من الحصول على صداقة عدد كبير من رجالات المسلمين ، فأقنعهم بضرورة تأسيس جمعية للبحوث الاسلامية ، وبالفعل تم تنفيذ اقتراحه وتألفت الجمعية وأصبح هو امينها العام وذلك ١٩٤٦ .

وفي ١٩٥٩ وبعد خدمة اربعين عاما في الهند فقد ايفانوف ثقته بالناس ، واصبح عاجزا ، وداهمته الشيخوخة التي لاترحم ، ورأى ان اعماله لم تقد رحق قدرها وكان قد وقع في ضائقة مالية بعد وفاة صديقه " آغاخان " الذي كان يرعاه ويرفه عنه ويوفر له الحياة الهادئة المطمئنة .

وفي سنة ١٩٦٠ غادر ايفانوف الهند الى طهران حيث اقام فيها بعيدا ، عن كل الناس ، وقد نمي الى عميد جامعة طهران ما يعانيه من الفقر والكفاف ، فدعاه اليه وخصص له غرفة في الجامعة مع راتب يكفل له الحياة والعيش ،وهكذا ظل حتى وفاته سنة ١٩٦٨ .

آخيرا ..

قد يكون من العسير علينا ، ان نقدم بيانا مفصلا عن الكتب والبحوث التي الفها هذا المستشرق في حياتـه ، والتي يربو عددها على المائة ،والحقيقة فان أهمية دراساته وبحوثه ظهر اثرها في المشرق والمغرب واصبحت من المصادر التي يعتمد عليها الباحثون واهمها :

١ - المرشد الى الادب الاسماعيلي .
٢ - الاسماعيلية والقرامطة .
٣ - الصوفية والاسماعيلية .
٤ - ناصر خسرو

لم يتزوج ايفانوف في حياته . . وكان يجيد اللغة الفارسية والعربية والانكليزية والافرنسية والروسية والاوردية .. وكان مؤرخا منصفا بعيدا عن التعصب يقول الحق ولا تأخذه لومة لائم ينتقد كل ما يراه أهلا للانتقاد دون خوف وكان لا يباع ولا يشرى ولا يجامل وهذا ما سبب له الفقر والحرمان والغربة .

د . عارف تامر

يوميات القمر الصناعي

محمد زهير الباشا

عربسات بين المناصرة والمناحرة

عربسات : أنت يا وكالة الانباء العربية
(ب ج د) طبعا سنكون رفاق درب في اي زمن وفي كل فصل ، فهات ما عندك من تحقيقات وتصريحات ومؤتمرات ، فالوقت فجر والبداية اليوم تمنحني القوة ، وأشعر بأني أعمل .
(ب ج د) اسمع يا عربسات .. سجل .. وانقل الى كل وكالات العالم :
صرح مصدر مسؤول ان مختلف التطورات الراهنة في منطقتنا ، والمواقف الحساسة التي ادت الى وقف تدهور الاحوال في الساحة ، كانت نتيجة لتمتين العلاقات المتبادلة ..
عربسات : أعرف ، وقد تم ذلك عقب محادثات هاتفية تبادل فيها المسؤولون وجهات النظر ، وكانت متطابقة وودية ، مما أدى الى حل المعضلات .
(ب ج د) : دعني أعمم ، هذه مسؤوليتي يا هذا .. حول .. وذلك تمهيدا لمحاولات مهمة فور الدخول الى بدء محادثات طوعية مما اضطر الى عقد موتمر جديد لشرح رموز التطابق .
عربسات : ولمعرفة كيفية التمسك بالصراحة والمبدأ والضمير ، فانا حريص على قيمي المصنوعة بفضل علماء ليسوا من بلادكم اطمئن ، فقد صنعوا قيمي من الكهرباء والشمس والمغناطيس ..
(ب ج د) : أراك تكمل وحدك مشوار التغطية ، وما حاجتنا الى ان نتكلف الملايين لابلاغك احداثنا .. فنورعها الى وكات الانباء العالمية ..
عربسات : جعلوني أهوى الصحافة وأعشق الاخبار ، وينشرح صدري للمباريات الرياضية ، وأصور زلازل السياسة ، وبراكين التصريحات ، وفيضان التعليقات، فصرت مثلك يا (ب ج د) ابحث عن الحقيقة عقب كل تصريح لمسؤول غير مسؤول ...
(ب ج د) : انت آلة تنقل ، انت الببغاء المتجول في الفضاء ، لا تجعلني اغضب فأقاطعك وابحث عن قمر جديد تضمن تعاملنا معه .
عربسات : اهانتان دفعة واحدة ، لم أسمعهما من وكالة (س م ع) .
(ب ج د) : أنت لا تعرف ما يجري من احداث في (س م ع) فهو بحاجة الى من يفكك له خطوط الاحداث .
عربسات : ليس للحقيقة معلم او منظر سوى العقل والحجة والواقع ، والطموح..
(ب ج د) : لا تجادل ، خذ هذه عينة من تعليماتنا ، اقرأ تفهم ، اسمع ما تقول الحقيقة مساحة تتجول فيها الوان الحوار .. والا فأنت عاجز عن استيعاب أحداثنا ، انتظر منا التعليقات ، والافتتاحيات ، والهوامش والتصريحات ..
عربسات : أسعفني بها ، حتى أترنم ، فأوساطك ملأى بكل جديد ، انتظرني يا (ب ج د) .
فلأصغ قليلا الى وكالة (س م ع) فالاصغاء زرعه العلماء بدمي - المكهرب .. اني اعاني من الجاذبية والدوران
(س م ع) : لا تعرب عنا ، كفاك انحيازا وانحرافا فأنت مصاب بهبوط الرأي معك . هبوط بالمناعة المكتسبة .
عربسات : اخاف من العدوى (م س ع) ، عفوا يا (س م ع) .
(س م ع) هذا مرض لا علاج له ولا دواء ، ولم يكتشف علماؤنا الفطاحل فيروسه ، حول ..
عربسات : لست بشرا ، لكني أتحمل متاعبكم كما تتحملون يا اهل الارض ، أخشى عليكم (س م ع)

(س م ع) : نحن ارقى امة في هذه الارض
عربسات : الظاهر انه بدأت فيكم نزعات اسطورية ، تسمونها الشوفينية ..
(س م ع) - ان كان لدينا نقص في حجيرات بعض الاجسام ، مما كان سببه انتشار البكتريا يا بني صفوف المدعوين، ونوزع الفيروسات بين الادعياء ، وتكن الرشوحات ، فليس هذا نقصا كما قلت .. اننا الارقى على الارض وفي الفضاء ..
عربسات : ولكن على دمائكم ترتقي حشرات .. وهم مرضاكم نقل الكلية ، وتغيير المعدة وزرع الانياب والقواطع ، والمحافظة على الالسنة المغموسة بعسل السلطان .
(س م ع) : انت قمر صناعي عربي ام انت مراقب دولي ؟ .. نحن صنعناك وارسلناك وباستطاعتنا اعادتك الى الارض .
عربسات : قبل هذا الكلام ، حللوا الدماء وعالجوا اجسادكم بالمضادات ، وانقذوا اجيالكم من آوجاعكم المزمنة .
(س م ع) ما هذا ؟ ما الذي نسمعه ؟
عربسات : انتم منهمكون بادعاءات وادعاءات ، والعالم يرقص على الشاشة ، ويعمل في المختبرات . اسمعوا ما سجلت من شريط تسجيلا عضويا .
(١) اقرئي يا حبيبتي يعني الحب ، لا خرائب بعد اليوم في نفوس العشاق ، هذه هي الساعة نخرج بها نغني ، نبني ، نرقص ، نفرح ، نعرف العالم ، اذا عرفنا انفسنا ، استيقظي يا حبيبتي ، فأحدثك واحدث طيفك كما تتحدث الريح الى الشراع ، ان شئت وان لم تشائي فأنا احبك الى الابد ، لم أضع هذا الرأي للمناقشة ، انه بديهة فليس بيد من يعشقون تفاهات ، يجب ان ابقى نحلة ترتوي من زهرة الياسمين ، حبيبتي ، الشمس لا تشرق الا الى الحب ، تشرق من عينيك ، على درب السعادة والبهجة ، فلنسر معا تحت ظلال الياسمين .. اقرئي حبي بعيني ياحبيبة "
(س م ع) : يا هذا صنعك كبار العلماء وصرت تسمعنا غراميات المراهقين ..
عربسات : صنعتموني على مزاجكم وما استعبدتموني فالسياسة هي فن التحكم بالمصائر والعقارات .. كما ارى واصور
(س م ع) : صور وانقل ولا تفسر و لا تقل :
بمناخ ايجابي ، وتصورات مشتركة في مجال العقلانية ، درست ونوقشت المسائل المطروحة وفق المبادئ التي اعدت للمرحلة القادمة بغية ازالة العقبات وتنقية الاجواء ، وتنفيذا للتوصيات والرسائل والتشاورات .. فنحن الدولة الاقوى ..
عربسات : لم استوعب منك فكرة او رأيا او جملة ، هل تتحدث الي باللغة الخاصة فأنا قمر عربي .. فما بالكم تتكلمون هكذا .. ؟ هل نسيتم .. من أنا ؟ ؟
(س م ع) (صور وانقل) : وفي غضون ايام او اسابيع وضمن التحرك الاخوي ، وامعانا بالايضاحات وضمانا للتعاون المستمر .
عربسات : حول يا س م ع .. فأنا تحت ضغط الاتصال مع (ب ج د) فموجاتي في حالة اضطراب
(ب ج د) : يجب ان يستمر التأييد للقضاء على حالات الغموض والتشويش ، وذلك انطلاقا من الفهم الايجابي الخلاق الممثل بالاصرار على امتلاك الارادة الحرة
عربسات : بدأت أفهم ما أسمع : الارادة
(غ م س) : حول ..ان استبعاد معطيات الدعم واستلهام ابعاد الفكر مقولات ، لا تثبت أي حق امام الاستيطان التعسفي،
عربسات : بدأت أسمع .. استيطان . استعماري .. تعسفي ..
(ع م س) : ان التلاحم بالتواصل يمنع الانخراطيين من التوصل الى التنظيم الفكري فالمجابهة بالتجانس تظهر من التوزيع المتغافل يؤدي الى التقارب بالتوصل ، .
عربسات : لهذا يحدث انشطار في دماغي ، انه انشطار متقابل في مرحلة الصعود مما يضطر لت [illegible] الخطة واندماجها وفي وتجانسها [illegible]صارحتها !..
(ع م س) / لم أفهم ما تعني ؟ سألغي اشتراكي السنوي ، وسأبحث عن قمر آخر،
عربسات : كل الاقمار امثالي حفظت شرائحكم المعقولة ، واحذروا من انفراط التزاوج الانفرادي حيث يفسح بالتمركز في مرحلة الابداع .
(ع م س) / ماهذا الانسطاح المفاجيء يا عربسات ؟ ما هذا الانسياب الخلاب ؟ والارتجال الجذاب ، انك وصلت الى ما ورائيات الفكر في خط بياني متصاعد .. لديك اليوم نظرة عقلانية .
عربسات : يتم بموجبها تجفيف البحر الميت من خارطة المساومات .
فما احلى التراشق بالكلمة .. وكم تمتلئ معدتي بالمرئيات فحرب الالسنة تعني الاشاعات المغرضة .. انتبهي يا ع م س من الصعب ان تغسلوا دماغي فهو متحجر ..
(ع م س) : نحن الذين نفكر ونخطط وننفذ والا فانت قمر ديماغوجي تحمل الاتهام والظنون .
(ب ج د) : حول .. لا تخشى على نفسك،

يا عربسات .. فلست فريسة لاي انسطاح زيتي ، وقد سمعنا حوارك بوضوح .. واناقة في التعبير ..
عربسات : اني ابحث عن زاوية مأمونة في القطب الشمالي او الجنوبي ، فأتجلد امام اي انسكاح جليدي ، وادرك معنى المصير المحتوم ..
(ب ج د) : المناعة المكتسبة قد وصلت الى جوهرك ، والمضادات الفكرية قدشحنت اليأس الى حقيقتك ..
عربسات : لست قمرا مصورا احداثكم ..

أنا لست ببغاء ارسلوا الي شعراء يتغزلون بمفاتني ، فلست اقل جمالا من بثينة جميل ، ولا اقل فتنة من ليلى او هند او ذات الخال ..

أنا لست اقل جمالا من بثينة جميل .. ولا اقل فتنة من ليلى او هند او ذات الخال، فأنا أضمن الراحة بين آهداب عشاق الغزل ..
(ع م س) : اهبط .. يا هذا من سمائنا
(ب ج د) : احفظ نفسك في سمائنا ..
عربسات : الى اللقاء .. فأنا في سماء القطب أتغزل بالشمس ..

محمد زهير الباشا

الهمسة

الى همسة البوح الاول

من ورود الشروق ، في روضة الالوا ن ، سالت على النسام المليسه
كخيوط حيكت على مغزل الشمـ س ، شفاف ، في كل خمر غميسه
تنسج اللحن فوق قيثارة الغصـ ن ، وتهدي الى الغدير همسيه
فيصيخ الندى ، ويسبح نشوا ن ، على بحرة المروج الاميسه
ولهاثاتها تبرعم آمالا ووعـ داً ، في رحبنا مغروسه ...
انا منها كالغاب يوقظه الفجـ ر ، وتشدو فيه الطيور الانيسه ..!

كمال فوزي

اوراق الداليــــة

حسين علي البكار

(١)

غمرت قدميها في وعاء الماء المملح ، وكأن قدرها قد كتب على مفارق عمرها ان ينتقل الملح من حلقها الى قدميها .

نظرت الى القميص المعلق فوق مسمار المرآة ، وتذكرت انه بحاجة الى خياطة وترقيع فأخرجت قدميها من الماء وراحت تبحث بين ثنايا الستارة الملهلهة عن ابرة وخيط وعندما انحنت لتلقط الابرة تناثرت غلتها المعدنية في اتجاهات مختلفة فتذكرت ان عليها الان ان تدفع ايجار الغرفة قبل ان يعزف صاحب الخان سمفونيته المعروفة ..

وكانت تلتهب ذاكرتها بامطار ورعود كلما تذكرت بداية كل شهر .. ففي ذاكرتها مخزون هائل من الوجع الانساني ..

وعندما لم تجده عادت أدراجها وغمرت الربطات المتبقية من البقدونس في الماء قبل ان يداهم الذبول اوصالها فتموت.

أمسكت القميص من جديد وعندما أيقنت انه لا جدوى من اصلاحه فتشت جيوبه وربطته في مقدمة الماسحة وقررت شراء بديل له من بائع البالة في الشارع المجاور .

وضعت وسادة القش التي تحتفظ بها منذ زمن تحت عنقها وتمددت فوق البساط وراحت تبحث عن قشة تتسلى بها ..

نظرت اليها وغاصت في لجج الامس الداكن وبدأ الظمأ يلفح جراحها النازفة ..

ورأت ذاتها مع الجائعين فوق الارصفة وكيف تسافر القناطر صوب الاتي خلف قطارات الزمن .. وتذكرت كيف كانت تلحظ فلول الغيوم المهرولة فوق تل الغرس ..

وكيف كانت تستحم واسط ببوح تشرين .. ثم هرولت تفاصيل تلك الليلة الطويلة الى كيانها فضاقت بها .. وضاقت بها الغرفة ..

وهج الحرائق كان يمتد .. والدوي الرهيب أخفى في دوامته عجولها الثلاثة ..

وكيف خرجت من دارها وهي تخفي في صدرها سلمان وعائدة .. وتوسدا ذراعيها في تلك الليلة بعد ان سرق الاعياء كل مافي جسدها من قوة ..

ثم أسبلت على تلك الليلة أستار المطر التشريني يوم خرجت لترى دارها وقدحولها الطغاة الى أنقاض ..

أمسكت القشة ودستها في ضفيرتها البيضاء عندما سمعت وقع أقدام عائدة على السلم الخشبي .

اجتازت ازقة العمارة وهي تتأبط سلتها المليئة بطاقات البقدونس بعد أن يممت عائدة وجهها شطر المدرسة لتلتقي بتلاميذها هناك ..

الباعة يتجمهرون خلف عرباتهم وبعض العمال جلسوا على الرصيف ينتظرون رزقهم بعد ان تلاحق اعناقهم السيارات الذاهبة الايبة في القصاع .. ويهبون كلما وقفت سيارة قبالتهم وام سلمان فرشت على ارض الرصيف قطعة المشمع وراحت تصفف فوقها طاقات البقدونس .. بينما يداعب سمعها رنين الملاعق وهي تذيب السكر في كاسات الشاي على طاولة حسن الخشبية الصغيرة ..

- كيف حالك يا أم سلمان ؟
- أبيع البقدونس يا ولدي.
- وما هي اخبار سلمان ؟ ؟
- ذهب الى بساتين الكرز .
- ألم يقل لك متى يعوذ ؟
- لا .. ولكنه لن يأتي قبل انتهاء موسم الامطار هناك .

وضع حسن كوبا من الشاي على صفيحة التنك التي تجلس عليها ام سلمان بعد ان لاحت له في صحو عينيها غمامات البوح الملتهب .. وأشاحت بوجهها عنه وهي تحتضن دفء الكوب وتستنشق العبق من الغيوم الزاحفة فوق قاسيون ..

لا تدري ام سلمان متى بدأت ترشف الشاي ولا متى انتهت منه .. ولا تذكر الكلمات التي قالتهالحسن وهي تحاول لجم جسدها المندفع بعد ان حاول حسن اللحاق بها في محاولة منه لمعرفة الاسباب التي جعلتها تهب واقفة وتترك البسطة الخضراء وتذهب..

(٣)

أغلق حسن صندوقه ولف بقية طاقات البقدونس في بساط المشمع ودفع جسده الى الغرفة والحيرة تلوكه، ثم تراكضت الاسئلة فيذاكرته وخشي ان تسأله عائدة ذات الاسئلة .. وخاف ان يجيب فيكذب .. او ان يقول الحقيقة فتعيده هذه الحقيقة للبحث عن ام سلمان وقد بلغ التعب منه مبلغه .. صعد السلم الخشبي و رأى عائدة منكبة على اوراقها البيض ووضع صرة البقدونس قرب الباب وهم بالاستدارة، لكن صوت عائدة لجم حركة ساقيه فوقف ..

– أين امي يا حسن ؟

– لقد تركت البسطة وذهبت

– الى اين ؟ ألم تقل لك الى أين هي ذاهبة ؟

– لا .. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– لا ادري .. حاولت اللحاق بها لكنها تأبطت السلة واختفت .

شخصت عائدة ببصرها ثم اتسعت في وجهها دائرة المخاوف وبدا لها ان في الامر لبسا يجب كشفه .. وعندما لم تطلب من حسن شيئا ساق جسده وغاب في ازقة العمارة المسقوفة، وتوارى بعد ان استنفرسمعه وبصره في كل الوجوه التي يصافحها بصره عله يرى وجه ام سلمان ويعرف كنه الحقيقة منها .

(٤)

اشعلت ام سلمان، سيجارة وراحت تحتضن بأهدابها تل ابي الندى والتلال الاخرى الغارقة في سديم السراب .. وعبت من الانسام الربيعية القادمة من البحيرة والسابحة في رفة اهداب الحمة .. وطردت شيخوختها بعد ان زال تقوس عمودها الفقري .. ثم توسدت احدى دعامات بيتها المدمر وراحت تستحضر الامس بكل تفاصيله .. هنا ولد سلمان وعائدة .. وهناك كانت تقام الاعراس ..و وعلى تلك الاجمة كانت ترتع قطعان الاغنام ويلتقي الفتيان والفتيات في تلك الوحدة يرسمون أحلام عشقتهم تأوهت ام سلمان حتى تذكرت كيف عومل من كان هنا بسادية وبربرية .. وكيف حصدهم الرصاص وتعثروا وسقطوا ..

أطفأت سيجارتها بعد ان تلاشت واستهلكها الشرود ..

– هميه أيتها العجوز ..

التفت اليه وملأ الحقد حنجرتها لكنها كبحت الغليان الذي بدأ يعتلج في صدرها ..

– ماذا تريد ؟

– ابتعدي من هنا .

– وما الذي تملكه هنا او هناك ؟ ..

– لاوقت للهراء ابتعدي ..

– وما الذي ستفعله ان لم ابتعد ؟ ..

– سأطلق عليك النار ..

– ومن الذي قال لك انني أخشاكم ؟ ..

– ألا تخافين من الموت ؟

– نحن نعلم أولادنا عشق الموت ..

– ألك أولاد ..؟

– نعم وهم كثر ..

– ماذا يعملون ؟ ..

– يستعدون لمواجهتكم ..

– ارفعي يديك عاليا .. هيا

– أنا لا ارفع الا رأسي ..

– والسلة ..

– ما بها ..؟

– ماذا تحتوي ؟ .

– ....

– هيا تحدثي ..

– انها .. انها ...

– أنت مجنونة .. أنت مجنو

– اخرس .. ان لم تكف عن الهراء سأقذف بالسلة .

تراجع .. اخفى ثلاثة ارباع جسده خلف المحرس .. خرطش رشاشه ..

– هيه .. سأعد الى العشرة

– لو عددت الى الالف فلن أتحرك من هنا .

مدت كفها الى جذع الدالية وراحت تتلمسها بحنان وهو ينظر اليها باستغراب .. أخذت تقبل الدالية التي زرعتها يوم ولد سلمان .. ثم أخذت تبثها أشواق العشق الدفين .. ثم قطع عليها صلاتها في محراب .. الذكرى صوته الساخر ..

– أترغبين بأكل الحشائش ؟

– هذه اوراق دالية عنب ..

– ولكنها حشائش

– ومع ذلك فهي خير من الخبز المعجون بالدماء المقطرة

– سأقطع هذه الاغصان التي اخترقت جدار الاسلاك .

– ولكنها ستبرعم من جديد لأن جذرها ممتد في التراب ثم ان مددت يدك الى غصن من اغصان الدالية فسأضطر لقذفك بالسلة .

– غدا سترين ماذا سأفعل ؟

– وغدا سأريك انا ماذا سأفعل ؟

– ٥ –

عادت ام سلمان مزهوة بما تحمل .. فوجدت عائدة وقد استبد بها القلق ومزق الانتظار اعصابها وعندما فوجئت بالسلة غسلت الشحوب المهيمن على استدارة وجهها الحنطي .. ابتسمت..

– لمن هذه الاوراق يا امي؟

– دعيني آخذ قسطا من الراحة يا ابنتي .

– سأجلب لك طعاما ..

– لا لست جائعة ..

– ولكنك خرجت باكرا و ..

– وأنا مسرورة الآن يا ابنتي

– شاركيني في هذا الفرح .

– اريدك أن تأخذي من هذه الاوراق الى المدرسة ..

– ولماذا ؟ ؟ ؟

– لكي توزعيها على الصغار

– ولم لا توزيعها انت بنفسك

– لأنني سأذهب باكرا الى هناك ..

– لماذا تذهبين ثانية ؟

– لأرى هل فتك ذلك الوغد بأغصان الدالية ؟

– وان فعلها ؟ ؟

– ان فعلها فسآخذ معي بنسة وسأقطع الاسلاك كلها .

– وان ...

– قولي للصغار ذهبت ام سلمان الى هناك وهي بانتظاركم ..

*

حسين علي البكار

صفت رؤاك

* زار الشاعر المنتدي الشعري لاول مرة، وكان لقاء مع الشاعرة ناديا نصار ومن خلال حديث عميق اوحت له بهذه الابيات بعنوان : صفت رؤاك .

محمد خضر كوسا

أراعية الاداب حفت ندية
رؤاك بعرش الفن مثل وصائف

لطاف السنا ينسبن في نفس شاعر
كما انساب برد الامن في نفس خائف

وان حديثا كان بالامس بيننا
ليدمي اسى دمع العيون النواكف

مضى فيه ذكر البين لم يلتفت له
أنيس سوى قلب حواليك طائف

على اننا فوق التراب وتحته
صحائف منه طويت بصحائف

تقلبها كف الزمان ولا ارى
سوى عبث يشتاره كل عارف

نعزى على قدر العقول وليتنا
نعزى على مقدار مافي العواطف

عشقنا سراح العين في العين والدنى
تمور بها يا للفتون المضاعف

وانغام ايقاع الوجود فهل لنا
اذا نحن متنا بعض تلك المعازف

وعدنا بخيرمنه خلد وجنة
ومايقنع الموعود مافي المصاحف

لعمرك يا ناديا سواء مخلف
قليلا وماض مطلق مثل راسف

*
محمد خضر كوسا

انور الجندي

شاعر ضيع عمرة

بقلم : عبد الكريم دندي

(٢)

مثلُ كلّ الخاطئين يقف في محراب الاعتراف ويبوح بسره، ومثل كلّ المعذبين فيعصرنا، يقف عاريا امام نفسه، فالمراوحة بالمكان تعبير عن العذاب المضني وعن قتل الوقت دون مسافة الانجاز الذي يريده، وكذلك الشكوى دون ارادة هي المراوحة في الزمان. ولقد ظل شاعرنا الجندي يسوّغ بالشكوى كلّ قصور بداخله في فاعلية التحدي، ويسوّغ ايضا كسله عن السعي صوب الهدف الكبير من حياته شاعراً وانساناً:

مَنْ تُرى يَحطمُ هذي القيودْ..؟
قيودِ نفسي من اسار الوجودْ
قيودِ اوهامي.. قيودِ العبيدْ
وفي الدجى صوتٌ عميقٌ.. عميقْ
يهتفُ بي قبلَ انبلاج الشروقْ
يا شاعرَ الالامِ.. ضاعَ الطريقْ
متى تُرى نَعبرُ هذي الحدودْ..؟(١)

فالاعتراف بالهم الذي يكابده الشاعر في التجربة واضح وجليّ، فالهاجس الفاجع مسكون في وجدانه منذ البداية.. مذ مرمرت الخيبة طموحه في الوصول الى مدينة باريس. عاصمة الثقافة والحرية وقبلة المتعلمين من جيله، حيث انتهى به المطاف معلما للصبيان في مدارس وزارة التربية، طلبا للعيش الكفاف، خصوصا وان ظروفا عائلية قد ساهمت في هذا التحول، حين انتقلت دفة الاسرة من يد الاب القاضي الموظف الى يد الاخ المزارع السياسي، فاذا كان الفاجع في حياة الانسان مهماز المأساة ومسرب الحزن والفزع، فهو بالوعي برزخ الدخول عالم الاخرين من الباب الواسع، باب التصدي والنضال، وغالبا مايكون الوعي حصان الارادة في معركة التحدي، ويصبح الهاجس عندها محرض الانفعالات الموارة والتساؤلات الكبيرة عن الاسباب والعلل، يحمل الانسان طيّ اجابتها صليب عمره، مواقفا متميزة في صيرورة الوجود، فمحور النشاط وفاعلية القدرات يتحدان على أرض الواقع الذي يحيا من خلاله المرء، الا شاعرنا الجندي الذي كان يهرب من عبء الصليب الى الملاذ الامين والدائرة الصغرى، فالنواح سلاحه وحضن الوالدة مجنّتهُ، بعيداً عن قلق السؤال وقدر الجواب، فيبكي طويلا من وقر الهاجس الذي يتسلط على وجدانه، ومهما يكن من أمر هذا الرجوع في قاموس علم النفس الفردي، فهو هروب من عبء القلق الى الطمأنينة، ومن حرية الاختيار الى عبودية الامن فالهرب أقرب الحلول من عنت السؤال المصيري، وضنك القلق الوجودي الذي يداهم روح شاعرنا صباح مساء، فتهتز أعصابه هزا بزيد من توتراته الداخلية، ويكسب الخوف مرة بعد اخرى فالفاجع يقف شرطيا في تجربته، يدمر كلّ تطلعاتها الكبيرة، ويسفحُ الشعرَ تهرباً من قسوته المرتسمة عند أفق هذه التطلعات، وتنفسيا عن الضيق الذي يحاصره، وملاذا من البحران الذي يطاوله، حتى

يتحاشى جواب السؤال المعلق : لماذا .. ؟ وكيف ..؟ والى أين ؟ السؤال الابدي الذي يحرّضُ شاعرية الانسان على البحث المستمر للخلاص من الشقاء وفي البحث تتكون تجربته الاجتماعية والفنية ، وتترسم الصورة الشعرية وصولا الى هذا الهدف الكبير من الفن ومن الحياة على حد سواء ، ولقد سأل بعض التلاميذ ذات يوم الحكيم الصيني " كونفوشيوس " ما الموت يا معلم ؟

فأجابهم في يقين المعرفة : هل عرفنا الحياة حتى نعرف الموت . وقال كاتب افرنسي معاصر ، « ان ازمة الكاتب الحقيقي والشاعر الصادق هي الموت » فهو مأساة كل انسان في كل زمان ومكان ، وعندها يتساوى الناس أجمعين وتتعادل مقاماتهم ، وان اختلفت اصواتهم ونظرتهم ، فهي المشكلة التي يتمحور حولها النشاط الابداعي منذ القدم ، فالموت أحجية الحياة التي لم تعرف حق المعرفة ، ولم يدرج حلها الصحيح ، وان اجتهدت الديانات والعقائد في وضع هذا الحل الصحيح ضمن اطار عصر كل منها ، وظل الحل في بحران المعرفة بين الحدس والمنطق وكثيرا ما يحاورنا الشاعر انور الجندي في رحلته الشعرية حول ذلك بصوت الاسى والجزع :

يا زورقاتاه ولم يرجع
قلْ لي أبعد الموت من مطمَع
ماذا وراءَ الغيب .. هلْ عالمٌ ..
كعالمي المغمور بالادمع
نتيهُ في الدنيا ولا غايةٌ
ونحن في أوهامنا لا نعي
ظمئتُ يا موتُ فهلْ رشفةٌ
أفني بها من ذلك المنْبع
ياموتُ . حسبي من جنون الاسى
أني غريبٌ تاه في بلقع (٢)

هل يقود الشك الى اليقين .. أم التساؤل الى النضال ..؟ مقولتان تناقضهما تجربة الشاعر وان آكدتهم تجارب غيره من الشعراء والمفكرين فحيث يكون السؤال معلقا ، يكون قلق الشاعر مرهقا وفاعلا في صيرورة التجربة أصالة وصدقا وهدفا ومن ثم انفعالا يتمثل صدق المعاناة وشفافية الصور التعبيرية عن ذلك ، ولكن لهاجس الفاجع يفسد المعاناة ، ويسطحها في التجربة الشعرية ، حرصا على وجود الشاعر وسلامة نفسه من عقبى الالتزام بالجواب الابداعي ، والالتزام ليس الا قضيةُ الحل في الموقف الانساني ، ويبقى الايمان بالقضية والعمل لها صليب العمر ، وديدن التجربة ، وقد حرم الشاعر الجندي من هذا الجهاد الاكبر بسبب الفاجع الذي يغويه على الهرب من العمل الدائم على طريق الالتزام بالحرية في صيرورة التجربة الوجودية والفنية ، ويتوس بين رغبة بالمجد وخوفه من الالتزام ، فلا يجد بين الهاجس والرغبة غير الشعر مطيةً سهلة الانقياد ، فيعلو صهوتَها وفق العروض الخليلي وقد عرفه وأتقن حفظه مذ كان يافعا والشعر لديه فاعلية نفسية ليس الا :

الشعرُ أغنيةُ الابداع أطلقها شعرًا
فمٌ عن دروب المجد لم يحد
شابَ الزمانُ وما شابتْ اصالتهُ
فاعجبْ لشعرٍ بجمر الوحي متقد
وهكذا تذهبُ الدنيا وبهجتُها
ويخلد الشعرُ مزهوًا إلى الابد
(٣)

ويصبح النواح عند تداخل القلق مع اليقين مسرب الصدق الشعوري ، ونافذة النفس المعذبة بالهموم المصيرية التي تثقل الكاهل ، فتهتز الاعماق بعيدًا عن خوف المسؤولية وضرورة الالتزام وتقف نفس الشاعر عارية امام موت الاحبة على عتبة الفاجع الانساني ، فيسجع الشعر نفثا محموما :

لا تلمني اذا بكيتُ طويلاً
شيّع القلبُ حلمَه المعسولا
أيها الذاهبُ البعيدُ
.. بعيدًا انا في الدرب استحث الرحيلا
عركتني مصائبُ الدهر همًا
وبرتني توجعًا ونحولا
فاذا ما بكيتكَ اليومَ فاعذرْ
شاعرًا جسّدَ الوفاءَ عويلا(٤)

فأمام الموت ينتهي قلق الشاعر ، ويرتاح من عذابات الاختيار بين الطمأنينة والحرية ، فغربة الشاعر الجندي قائمة في هذا الموقف المتردد بين الالتزام والانفلات ، بين ارادة الفعل الذي

يحمل الجواب المصيري وينقل صاحبه الى يقاع المجد وبين الهرب الى الكوخ القديم حيث الامان والتأمل فيما يجري ، لقد ضاع قدره في بحران الاختيارات الحاسمة وان كان يرغب في ان يحسم الموت اختياره ، فالرغبة الكامنة بداخله مسحة رومنطيقية من عصور الماضي، وهي ضربة لازب امام صوت الهاجس الفاجع الكامن فيه :

نامي ولا تخشي ظلامَ القبر فالموتُ ارتياحُ
كمْ شاعرٍ في الارض يعوزه الرقادُ ولا يتاحُ
وذكرتُ أيامَ اللقاءِ وصحبةً ذهبوا وراحوا
تركوا لي الهمَّ الطويلَ .. فماله أبداً بَراحُ (٥)

فاذا كان الموت قدر كل حي ، فالفاجع فيه ان يأتي على غير ميعاد ، وقبل ان تستكمل الحياة دورتها عنده ، ومن هذا الاحساس الانساني الأولي ، يغلّف شاعرُنا صوره الشعرية "بالاطارات الرمادية والظلال الداكنة والايقاع الهامس ، وقد تبلور مثل هذا الاحساس بالعويل عند انسان المجتمعات البدائية ، لان الهاجس الفاجع يلغي سيطرة العقل على السلوك وتنفرد العاطفة في توجيه الانفعالات والسلوك معا ، ويزداد الاحساس سورة بمقدار كمون الخوف في الانسان الذي تضطرم بداخله الانفعالات ولا تجد مسارا لها غير الحيرة عند الحدث ، والوقوف امام سقوط الانسان عاجزا عن الدفاع وتتصالح أعصاب الشاعر مع الهاجس في مثل هذه الوقفات ، وتنبثق خواطره وتصوراته من مورة الانفعال المسكون بالفاجع ، وهذا القلق يعاوده عندما تشده الرغبة في التجربة الشعرية الىتيارهـا التساؤلي عما جري ؟ فيرتاح على جناح الشعر من وقر الهاجس ودبيب الاسى والجزع فيما بدا :

عدتُ لا أسألُ من أين أتيتُ
يالَوهمي .. انا من وهمي ارتويتُ
كيف لا أعلمُ اني عبدَ نفسي
كيف لا إعلمُ إني طوعَ حسّي
أنا عبدُ خانعٌ يرقبُ عبدا
لا تسلني .. ضعتُ في بيداءِ ظَنّي ..
خلّني باالليل مخموراً بحزني ،
كلما مرّتْ بي الذكرى ..صحوت (٦)

هذا البحران الذي يعايشه شاعرنا الجندي قد ضيّع عمره سدى في رحلة الشعر ، فالهرب من مواجهة السوّال الكبير بالموقف الوجودي الفعّال ، دفعه الى الابتعاد عن المغامرة والانتماء تحت وهم الفردية ، وهو يعترف بذلك جهارا حيث يقول :

" .. اما الالتزام والالزام وهذا ما يخجلني جدا التحدث عنه ـ كلمات جوفاء ، ومعتقدات أدبية لا داعي لها أبدا ، فأنا أعود الى احساسي ، الى أعماقي ، فرب عين جميلة ، ومشهد رائع ، ودمعة حارة توقظ في نفسي قصائد شتى ، لا قصيدة واحدة .. " (٧)

فأيُّ ضياع أقسى من هذا على شاعرعاش أخصب فترات النضال القومي والوطني ، ولا يفرق بين الالتزام والالزام ، ويعيش تحت وهم الفردية أمام احداث العصر . لقد لاذ أنور الجندي بالشعر منذ اليفاعة وصولا الى الفاعلية الاجتماعية بين الجماعة ، على غرار ما اراده المتنبي ، ولكن المسافة بين الاستاذ والتلميذ ظلت طويلة . إذْ لم يملك الجندي ارادته ولا حاز على جناحيه ، فقد أنقض الفاجع ظهره وسكن وجدانه زمناً ، فكان غناوّه نواحا على الحاضر ، وخوفا من الآتي ، وحسرةً على الماضي ، وفي هذه الانفعالات يأخذ الفاجعُ طابعَ السلبية المدمرة على مختلف الصور في النشاط الانساني ولكن الوعي بالفاجع يدفع الانسان للبحث عن الجواب العملي والعلمي للسوّال المعلق ، أمامه، وبالتالي الالتزام بالقضية الانسانية برمتها في خضم التجربة الوجودية وتتجه عندها الانفعالات صوب الايثار والفداء ، وتلك قمه السمو الانساني والخروج من دائرة الذات الى الجماعة ، والانسان اجتماعي بطبعه ويصبح حس المأساة تجربة كبرى في المرحلة وما الحزن العميق الذي نزعن له بملىء ارادتنا الا ثمرة هذا الاحساس ، وكل انفعال خارج هذا المجال هو اضطراب طارىء مثقل بالضياع ، دخيلٌ على الحس الانساني العام .

ويعيش الشاعرُ اسيرَ اهدافه القريبة والخاصة ، وتلك مسرب الهرب من ارادة الاختيار وحرية العمل •
وشاعرنا الجندي قد ضيّع عمره دون هذه الارادة والحرية في تجربته الوجودية والشعرية ، حتى استطالت تجربته بلا عمق او تفرد خاص وبات النواح علامتها المميزة تحت وهم الذات في المأساة الانسانية :

أنهكتْ أقدامي وروّعَ مُهْجتي
كيدُ الهوى وشماتة العزّال
وألحَّ بالتسآل يغمرني الاسى
فيغيبُ في صوت الظلام سؤالي
أمَدٌ من الالام ، يسرحُ ناظري فيه
ويرجعُ مثقلاً بنبال
وتلفتتْ عيني ، فلمْ أر في الدجى
من حلمي الماضي ،سوى اطلال
شكٌ يهدُّ جوانحي ، فكأنهامشبوحةُ
الاطراف بالاغلال (٨)
ويشوقني حبُّ الحياة
فأرتمي ظمآنَ أنشدُ جرعةً منْ
آلٍ •

فالنوسان بين ما يريد وما يهوى قائم دون الجواب الذي يطرحه وعي المأساة بما يرى من حوله ، وتلك هي آلامه التي يكابدها ، وآنة بلواه التي يطامنها فوقدة الشعور ترهق اعصابه عند كل سؤال ، وتنطلق الانفعالات بداخله المسكون بالفاجع ، فكان الى الهرب أسرع من مواجهة السؤال والى النواح أدنى من الصراخ والاحتجاج :

آه من قال : ان غفوةَ عينٍ
هي عند المعذبين ••دواءُ
كذبَ القائلون •• كلّنعيمٍ لمْيدمْ
فهو في العروق شقاءُ
أيها الزاعمون •• ان جراحَ
النفس تمضي وللعذابِ انتهاءُ
باطلٌ زعمكم ، وزوْرٌ ، وبهتانٌ ،
وليلٌ تلفه الظلماءُ
أنا واللوعةُ المريرةُ روحٌ مزّقتهُ
العواصفُ الهوجاءُ
وجراحي ، كالشكِ في صدر محْرومٍ
برته المواجعُ الخرساءُ (٩)

لقد ضيّع عمره بدداً في هذه التجربة الشعرية على مدىاربعين عاما ونيف بين صوت الاسى ونواح الوفاء ، فوهم الفردية يثنيه عن ادراك الجواب في تيار الجماعة والتزام جادة الحقيقة الانقلابية ، والسعي على دربها ، ويطلسم في صدره وعي المأساة ، فيهرب الى الشعر من قلق السؤال الابدي •
نفثات من الروح تترى على شفتيه ، دون ارادة فاعلة ، يرتاح بها من وقر الهاجس ، حتى تسطحت معاناته ونظرته ، واختزل هروبه الدائم الى الشعر طموحه الى المجد والكبرياء ، وتلك هي المتاهة التي عاش خلالها شاعرنا ولم يدرك ابعادها او يسعى الى الخلاص منها فقد استمرأ ذلك بعيدا عن الالتزام بوعي المأساة في التجربة الاجتماعية والفنية ، وكانت فرصته الذهبية ان يكون شاعر المرحلة التاريخية الحبلى بالقراءات ولكنه آثر السلامة على المغامرة وارتاح إلى صوت الاسى وخمرة العذاب في ايقاع شعري بدل البشارة والكفاح ، فكانت قصائده واحدة على مدى تجربته الشعرية ••

عبد الكريم دندي

هوامش •

١ – من قصيدة " حدود " نشرت بمجلة الاديب جزء ١١ عام ١٩٥٢
٢ – من قصيدة " الزورق التائه " نشرت بمجلة الاديب جزء ٥ عام ٩٥٠
٤ – من قصيدة " الى سليمان الشهواني " نشرت بمجلة الثقافة الاسبوعية العدد ١٧
٥ – من قصيدة " خاتمة المطاف " نشرت بمجلة الثقافة الاسبوعية العدد ٢٢
٣ – من قصيدة " الى الياس قنصل " نشرت بمجلة الاديب جزء ٦عام١٩٧٣
٦ – من قصيدة " الكوخ القديم " ، نشرت بمجلة الاديب جزء ١٠ عام ١٩٥٤
٧ – من حوار مع الشاعر نشر في جريدة الفداء الحموية العدد ٢٥٤٦
٨ – من قصيدة " يأس " نشرت بمجلة الاديب جزء ١٠ عام ١٩٥٠
٩ – من قصيدة " خمرة العذاب " ، نشرت بمجلة الاديب جزء ٣ عام ١٩٥٦

* فصل من كتاب يعده الكاتب عن الشاعر وسوف يصدر عن دار الثقافة بدمشق تحت عنوان " شاعر ضيّع عمره " •

اللغة الفصحى وتعليم الشعب

ألقى معالي الدكتور طه حسين رئيس اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية ، في الساعة السادسة والنصف من بعد ظهر الثلاثاء ١٩٥٦/١٠/٢ في مدرج الجامعة السورية ، المحاضرة التالية في (اللغة الفصحى وتعليم الشعب) :

سيداتي وسادتي :

أريد أن أتحدث اليكم الليلة في موضوع عسى ان يكون ثقيلا، واعتذر اليكم من ثقله فالحق ثقيل دائما ، لا يخف الا على اولي العزم من الناس ، والعهد بكم انكم من أولي العزم، لانكم من العرب الذين يؤثرون الجد على الهزل ويفضلون الصراحة على المداراة والمواربة وبيني وبين الذين سينكرون ما اقول ، كله او بعضه ، ما قاله ابو العلاء :

خذي رأيي وحسبك ذاك مني
على ما في من عوج وأمت
وماذا يبتغي الجلساء مني
أرادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمد قصي
فأموا سمتهم وأممت سمتي

والموضوع ثقيل لانه يتصل باللغة العربية الفصحى ، فما اكثر ما نتحدث عن هذه اللغة العربية الفصحى ، وما اكثر ما نعلن اعتزازنا بها ،واعتدادنا بتراثها ، وحرصنا عليها وعلى تراثها العظيم ، ويقيننا انها هي أساس وحدتنا وهي العروة التي تجمع الشعوب العربية على اختلافها ، وتباعد اوطانها ، والعروة التي لا انفصام لها ، نتحدث عن هذا فنكثر الحديث ، ونقول في هذا فنطيل القول ، ونملأ به أفواهنا ، وتطمئن اليه قلوبنا ، وتثور له نفوسنا واذا نحن نفيض ايمانا وثقة واملاويقينا فاذا فرغنا من هذا كله ، وثبنا الى نفوسنا ، أو ثابت نفوسنا اليه ، وهدأت عنا الحماسة ، اكتفينا بما قلنا ، وبما سمعنا ، وبما صفقنا ، وبما صحنا ، ثم لم نكد نصنع شيئا .

ولست أنكر ان علماء اللغة في البلاد العربية على اختلافها ، يبذلون جهودا عنيفة ، وينفقون من اوقاتهم ومن نشاطهم اكثر مما يطيقون ، لحماية اللغة وصيانتها ، وحراستها والمحافظة عليها من كل عبث او كل شر ، يمكن ان يصيبها ولكن السؤال الخطير الذي ألقيه الان ، وأريد أن يلقيه كل واحد من حضراتكم عن ثقة :

لمن نحفظ هذه اللغة ؟ ولمن نصونها ؟ ولمن نريد ان نخلدها ؟ ولمن ننفق كل ما ننفق من جهد ووقت ومال في سبيل هذا كله ؟ أنفعل هذا كله لأنفسنا لنستأثر

بالعلم ، وليقال اننا علماء ، حفاظ ، نتصرف في اللغة العربية بعد ان طوعناها بقدرتنا ، ونستطيع ان نصرفها كما نحب ونهوى ؟ أم نحن نفعل ذلك لتكون هذه اللغة ملكا للشعوب العربية كلها ، لا لطبقة معينة منها هي طبقة العلماء الائمة ، الحفاظ ، ولكن لجميع طبقات الشعوب العربية ، الطبقات الممتازة ، او الراقية ، والطبقات الوسطى ، و الطبقات الفقيرة ؟ .

وهذا هوالسؤال هو الذي اريد ان أدير الحديث حوله هذه الليلة .

أما أن فينا علماء ، فهذا ليس فيه شك ، ويكفي ان اكون في دمشق ، وان القى الاعلام من اعضاء المجمع العلمي في دمشق ، وان ألقى هذه الطائفة الممتازة من المثقفين الشاميين لأقتنع بان اللغة العربية حية قوية ، وان لها حفاظا ، وان لها انصارا يذودون عنها ويحمونها ، يذودون عنها الشر والعبث والفساد .

وما أشك أن في البلاد العربية الاخرى شيئا يشبه ما في الشام كثيرا او قليلا ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو ان هذه اللغة العربية التي تبذل في سبيلها كل هذه الجهود ، وينفق في سبيلها كل هذا الوقت ، هذه اللغة لم تصل بعد الى الشعوب ، او لا يكاد يصل منها الى الشعوب الا اصداء لا تغني عنها شيئا .

وليس ادل على هذا من اننا اذا استقصينا امر اللغة العربية في الاقطار العربية ، فسنرى ان اكثر الذين يقرأون ويكتبون لا يستطيعون ان يقيموا ألسنتهم بهذه اللغة الفصحى ، وسنرى شرا من هذا ، سنرى كثيرا من الشباب في غير قطر من الاقطار العربية يفكرون ويعلنون ان هذه اللغة اصبحت عاجزة عن ان تساير الحياة الحديثة ، ويفكرون ويعلنون ان هذه اللغة اصبحت عاجزة على ان تعرب عن ذات النفوس في هذا العصر الحديث ، ويفكرون ويعلنون ان هذه اللغة اصبحت لا تصلح لتكون لغة الكتابة ، ولغة الادب في بعض البيئات ، وما اكثر الذين اخذوا ينحرفون عن هذه اللغة الى اللغة العامية التي يتحدثها الناس في الشوارع ، وفي القرى ، وفي اعماق الريف ، يكتبون بهذه اللغة ، يرون الكتابة بها أيسر من الكتابة بهذه اللغة العربية الفصحى ، ويرون هذه اللغة العامية أطوع لهم ، واقدر على تصوير عواطفهم ، واهوائهم وميولهم وما يجول في رؤوسهم من الخواطر والمعاني من اللغة العربية الفصحى .

ويعللون ذلك بأسباب كثيرة أهمها انهم لا يستطيعون ان يتعلموا اللغة العربية لأنها عسيرة ، ولانها مملة ، ولأن التلميذ اذا ذهب الى المدرسة واستمع الى دروس الاستاذ في اللغة العربية ، في النحو او في الصرف اوفي البيان ، لم يستفد من استاذه ولا من دروس استاذه الا شيئا واحدا ، وهو النفور من الاستاذ ، والنفور من اللغة العربية ، والانصراف الى اي شيء آخر يلهيه ويريحه من هذا العناء الثقيل ولا تظنوا انني أبالغ ، اواتكثر ، فهذه حقيقة واقعة لاينكرها ، الا المكابرون ، ولا تقولوا ان المدارس قد اخرجت طائفة من الكتاب والادباء الممتازين ، فهؤلاء هم الشذوذ الذي يثبت القاعدة ، او الاستثناء الذي يحقق القاعدة كما يقال .

ولكن التلاميذ في المدارس ، لايبغضون شيئا كما يبغضون دروس اللغة العربية ، وهم مع ذلك اذا استمعوا لمحاضرة عن اللغة العربية ومجدها القديم وتراثها الخالد العظيم ، ثاروا حماسة وامتلأوا نشاطا ، وايمانا واعجابا بهذه اللغة ، ولكنهم حين تسقط عنهم الحماسة يعودون الى تذكر الاستاذ وكلامه الثقيل .. الذي كان يمليه عليهم ، او يلقيه عليهم في المدرسة ، وهذه الامثلة الشاقة التي كان يمتحنهم بها بين حين وحين .

والامر اشد من هذا كله خطورة .

فنحن في هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه قد آمنا بأن التعليم حق للشعب كله ، منذ السن المبكرة ، الى ان يبلغ الفتى او تبلغ الفتاة الرشد ، واذن فنحن لا نبيح التعليم للقلة التي وقفت نفسها على ان تتعلم ، واتاحت لها الحياة ان تفرغ للتعليم ، وان تنفق فيه شيئا من الجهد والوقت والمال ، وانما نفرض هذا التعليم على الاغنياء والفقراء ، وعلى الاقوياء والضعفاء ، وعلى القادرين والعاجزين ، نفرض هذا التعليم على الشعب كله ، ونعاقب الذين يقصرون في أداء هذا الواجب ، وهو تعليم أنفسهم أولا ، وتعليم أبنائهم وبناتهم بعد ذلك .

قوانينا تعاقب الذين يقصرون في تعليم أبنائهم وبناتهم ، ومعنى هذا أننا نفرض التعليم على هذه الملايين الكثيرة التي تتألف منها الاجيال في هذه البلاد العربية .

واذا فرضنا التعليم على كل هذه الملايين فيجب ان نبتغي الى هذا التعليم وسائله الصحيحة التي تنتهي به الينا حقا ، ويجب ان لا نكلف الكثرة الضخمة التي تعلمها الآن في مدارسنا ، يجب ان

لا نكلف هذه الكثرة الضخمة من البنات والبنين ، ما نكلف به القلة التي يتاح لها الوقت ، والجهد ، والمال ، واذن فلا بد من ان يكون التعليم يسيرا ، ومن ان يكون قريبا ، ومن ان يكون سائغا ، لا تجدفيه الكثرة مشقة ولا عنتا ، و لا تحتاج فيه الى هذا العناء الثقيل الذي يفرض علي ابنائنا فرضا .

وأخرى ليست اقل من هذه خطورة ، وهي أننا نعيش الآن في القرن العشرين ، أي في العصر الذي تغير فيه التاريخ ، وتغيرت فيه الحضارة المادية تغيرا تاما ، وتغيرت فيه الثقافة العقلية تغيرا يوشك ان يكون تاما ايضا ، وتغير فيه العقل نفسه بحكم ما طرأ على الحضارة والثقافة من تغير ، ومازلنا نعلم اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا كما كان القدماء يعلمونها في معاهدهم ومدارسهم منذ اكثر من الف عام ، وقد تستطيع ان تطلب الى القلة القليلة جدا ان تحتمل هذا العناء ، وان تتكلف هذا الجهد ، وان تخرج من القرن العشرين لتعيش في القرن الثامن او التاسع للميلاد ، لتتعلم النحو ، والصرف ، واللغة ، كما كان القدماء يتعلمونها ، ولكنك لا تستطيع بحال من الاحوال ، ان تطلب الى هذه الملايين الكثيرة ان تبذل هذا الجهد ، وتحتمل هذا العناء ، وتخرج من حياتها التي تحياها بالمشقة ، والكد ، والعناء ، لتعود الى حياة اخرى لعلها لا تعرف من أمرها شيئا ، فعندما تريدون ان تعلموا هؤلاء الاطفال في المدرسة الابتدائية او هؤلاء الشباب في المدارس الثانوية ، عندما تريدون ان تعلموهم النحو ، تعلمونهم النحو كما كان المبرد واستاذه المازني وتلاميذهما المختلفون يعلمون في مساجد البصرة ، وكما كان الكسائي والفراء يعلمان في مساجد الكوفة ، او في مساجد بغداد ، والفرق بعيد بين المدرسة الابتدائية التي تنشئها في اعماق القرى ، وبين مسجد البصرة ، او مسجد الكوفة ، او مسجد بغداد ، والفرق هائل جدا بين القرن العشرين ، وبين القرن الثامن او التاسع حين كان يعيش هؤلاء العلماء .

كان القدماء يعيشون عيشة خاصة ، ويتأثرون من ناحية بالبداوة العربية الاولى ، ومن ناحية اخرى بالفلسفة اليونانية الطارئة ، ومن ناحية ثالثة بالحضارة الفارسية المادية التي احاطت بهم وشملتهم شمولا . اما نحن فقد صرفنا عن البداوة العربية الاولى ، واغرقتنا الحضارة الحديثة الى آذاننا ، وقد أنسينا فلسفة ارسطاطاليس وغيره ، من قدماء اليونان ، واصبحت هذه الفلسفة ، لا يعرفها الا الاقلون من امثال الصديق الدكتور منصور فهمي والدكتور جميل صليبا ، وأصبحت الحضارة الفارسية شيئا يعني الفرس حين يدرسون تاريخهم ، أما حضارتنا الان فهي الحضارة الحديثة ، ونحن نعني بحضارتنا القديمة لنستبقي منها ما يصلنا بالقديم حتى لا تفنى شخصيتنا ، وحتى لا نفقد عروبتنا ، وحتى يظل الاتصال قويا بيننا وبين ماضينا ، المجيد ، فاذا اردتم ان تعلموا النحو هؤلاء التلاميذ المساكين فكيف تريدونهم على ان يفهموا ان قولك " قرئ الكتاب" فعل مبني للمجهول ، والكتاب نائب عن الفاعل ، لأن الفاعل قد حذف لغرض من الاغراض التي تذكر في علم المعاني وعلم النحو ، وأنيب عنه المفعول به ، كيف تريد التلميذ المصري او الشامي ، او العراقي الذي لم يتجاوز سنه الثانية عشرة ان يفهم هذا الكلام ؟ ماهذا المجهول الذي بني له الفعل ؟ وعندما تريد ان تفهمه قول الله تعالى : "وان احد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه " قلت له : " ان احد " في قوله " ان احد من المشركين " فاعل لفعل محذوف تقديره استجارك ، وان تقدير الاية " وان استجارك احد من المشركين استجارك " ، فيسألك التلميذ واين توجد استجارك الاولى هذه ومن اين نأتي بها ؟ وما السبب في وجود هذا الفعلمرتين ؟ ولماذا لا نكتفي بهذا الفعل الذي اكتفى بهذا الفعل الذي اكتفى به القرآن الكريم ؟ فكيف تجيبون ؟ أما أنا فقد سألت أحد الشيوخ عن اعراب هذه الاية ، فأعربها كما تسمعون ، فقلت له : يا سيدي أتزيد في كتاب الله ؟ ..

وعلة هذا ان النحاة القدماء قرروا في قواعدهم ان حرف (ان)لايدخل الا على فعل ، ولما جاء في القرآن وفي كلام العرب (ان) وبعدها اسم لم يخضعوا لما جاء في القرآن للقاعدة التي قرروها ، وقد طوعت لهم فلسفتهم هذا النحو من التصرف وأستطاعوا ان يحتملوه واستطاعوا ان ينهضوا بأثقاله ، لأن عقولهم في تلك الاوقات ، في تلك السنين ، كانت عقولا فلسفية متأثرة (بالميتافيزيك) او بالميتافيزيقا كما يقولون ، التي تركها ارسطاطاليس ، وورثها العرب ، فكانوا يستطيعون ان يفهموا مثل هذا الكلام ، ولكن شبابنا في هذه الايام يعيش في عصر لا يكاديحفل بالميتافيزيك وما بعد الطبيعة ، ويعيش

في عصر لايكاد يعرف ارسطاطاليس فيه الا المختصون ، فاذا حدثتهم عن الفعل المحذوف الذي يفسره ما بعده ، وذكرت لهم هذا الفعل حاروا في أمره حيرة بعيدة واذا اردتم ان تعلموا التلميذ " فاما ثمود فهديناهم " فأفهمتموه ان ثمود ليست مفعولا لهديناهم ، وانما هي مفعول لفعل محذوف تقديره هدينا ، ثم قلتم : معنى الاية او تقدير الاية "هدينا ثمود فهديناهم " لم يستطع التلميذ الا ان يضحك اولا ، ويسخر ثانيا ، و ان ينصرف عن الاستاذ ودرسه بعد ذلك ، والحمد لله على انه لا ينصرف عن الاسلام ولا عن القرآن ، لأن الاسلام اقوى والقرآن أقوى من أن يؤثر فيهما مثل هذا العبث ، أو اذا قلت للطالب نحن المصريين نفعل كذا ، أو نحن السوريين نفعل هذا ، وطلبت اليه ان يفسر هذا او يعرفه ، أفهمته ان هناك فعلا محذوفا تقديره أخص أي نحن أخص السوريين نفعل كذا ، ما موقع هذه ؟ لا معنى لها مطلقا ، الا انا وجدنا هذه الكلمة منصوبة ووجدنا هذا التعبير يدل على التخصيص ، فقدرنا هذا الفعل ، وقدرنا هذا الفعل ، ولنا ان نقدر ما نشاء ، ولكن التلاميذ لهم أيضا عقول صغيرة ، ساذجة ، لا ينبغي ان نكلفها مالاتطيق ، واذا قلت للتلميذ " اياك والكسل " وطلبت اليه اعراب هذه الكلمة ، اخترعت له فعلا مقدرا لا ادري، ولا يدري هو أين يكون ومن أين جاء ، هو " احذرك " .

ونظرا لانك حذفت الفعل فقد اضطررت الى ان تستعمل الضمير المنفصل مكان الضمير المتصل ، فلم تقل " ك النار " وانما قلت " اياك والنار " .

كل هذا كلام أنا شخصيا أحبه أشد الحب ، وأؤكد لكم ان النحو هو أحب علوم اللغة العربية الي ، وأؤكد لكم أنني أجد لذة لا تعدلها لذة ، حين أجلس الى الصديق ابراهيم مصطفى ونتذكر بابا من ابواب النحو ، ونحاول اعراب آية من آيات القرآن على قواعد النحويين ، أو اعراب بيت من أبيات الشعر على قواعد النحويين ، ولا أنسى انني تذاكرت معه غير مرة في اعراب الاية الكريمة : " ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا ان لايجدوا ماينفقون " . كيف يكون إعراب هذه الاية ؟ لأن هناك فعلين : " قلت " و " تولوا " و " اذا " محتاجة الىجواب .. أين يكون الجواب بين هذين الفعلين .. بين " قلت لا أجد " وبين " تولوا " ؟ ويكفي ان تنظروا الى اعراب القرآن لابن حيان لتروا ما يقال هناك ، ولكن كل هذا العمل ما يعمل به التلاميذ في المدارس صغارهم وكبارهم ؟

هذا فصل ، وفصل آخر ليس أهون منه ، الاصل أن الناس يكتبون ليقرأوا ، ويقرأون ليفهموا ،ونحن نكتب لنقرأ ، ولكننا لا نقرأ لنفهم ، وانما نفهم اولا لنقرأ بعد ذلك ، واذا كان هذا جائزا بالقياس الى الممتازين النابهين النافذين ، فهذه الملايين ما الذي تطلبونه اليها ؟ كيف تطلبون من هذه الكثرة من الاطفال الصغار ، في هذه السن المبكرة ، ان يفهموا الكتب التي تعطى اليهم بالمدارس ليقرأوها كما ينبغي ان تقرأ، ويجب عليهم ان يفهموا قبل أن يقرأوها ، أو أن يقرأوها خطا فيلقون من اساتذتهم ومعلميهم سخطا ، فلا بد اذن من ان نختار بين اثنتين : اما ان نريد المحافظة على اللغة العربية في مجامعنا العلمية على اختلافها فنذود عنها كل شر ، ونحميها من كل بأس ، ونحيي تراثها القديم ، ونجتهد في ان نضيف اليه كل جديد ممكن ، ينفع ولايضر اما ان نكون نفعل هذا كله لأنفسنا ولاشباهنا من المتخصصين ولا نحفل بالشعب ولا بتعليم الشعب ، واذن فنحن لا نصنع اكثر مما يصنع المتخصصون في اللغة اليونانية القديمة ، وفي اللغة اللاتينية القديمة ، اي ما يصنعه المتخصصون في اللغات الميتة .

أتريدون ان تكون اللغة العربية احدى هذه اللغات الميتة التي يفرغ لها المتخصصون ولا يحسنها غيرهم ؟

هذه واحدة ، والثانية ان نكون انما نفعل هذا كله لتكون اللغة العربية لغة حية حقا ، كما تحيا اللغة الالمانية والايطالية والفرنسية والانكليزية والاسبانية وغيرها من اللغات الحية التي يتكلمها الناس ويكتبون بها ، ويفهمونها حين يقرأونها ، أويقرأونها فاذا قرأوها فهموها في غير مشقة ولا عسر ، واذا تعلموها فلا يجدون فيهاجهدا ولا مشقة ولا عناء الا ما يجده التلميذ في حياته العادية حين يتعلم اي شيء من هذه الاشياء التي يتعلمها في صباه .

ولم أذهب بعيدا ؟ انظروا الى تلاميذنا في المدارس الثانوية ، اننا نعلمهم اللغة العربية ، ونعلمهم لغة أجنبية او لغتين اجنبيتين ، في اي اللغتين يتثقف هؤلاء التلاميذ ، وفي اي اللغتين يسرع هؤلاء التلاميذ الى النطق والفهم والحديث .. أتظنون انهم يتثقفون باللغة العربية .. أتظنون انهم يسرعون

الى التحدث بالعربية الفصحى ، ويسرعون الى قراءتها او فهمها ام الواقع شيء آخر .. اما أنا فقد جربت كثيرا ، والذي اعرفه من التجربة ان تلاميذنا يتعلمون اللغة الانكليزية والفرنسية أسرع مما يتعلمون اللغة العربية ، لولا ان عوادلهم تفرض عليهم شيئا من التحفظ وتفرض عليهم شيئا من الجهد .

أؤكد لكم ايها السادة ان كل هذا الذي عرضته عليكم حتى الان انما يصور خطرا محققا أشرت اليه في افتتاح مؤتمر المجامع العلمية منذ يومين ، وأضيف اليه ان هناك كتابا كبارا يقرأون في الشرق العربي كله ، ويطالب بعضهم الآن بالغاء الاعراب والغاء قواعد النحو .. أنا أطالب بتيسير قواعد النحو وتيسير الكتابة العربية ، لتشيع اللغة العربية ، وتصبح لغة الشعوب حقا ولغة حية حقا ، ولكن من الناس من كتبوا في هذه الايام القريبة يطلبون الغاء قواعد الاعراب وتسكين أواخر الكلام لا لشيء الا لانهم لم يتعلموا اللغة العربية حين كانوا تلاميذ في المدارس ، لا لشيء الا لأن النحو القديم والكتابة الموروثة والاساتذة الذين يعلمون النحو القديم والكتابة الموروثة ، كل اولئك عجزوا عن ان يحببوا هذه اللغة الى الكاتب الكبير ، وبغضوا اليه العربية الفصحى ، وغرسوا في نفسه هذا البغض ، وأصبح الآن لا يكره شيئا كما يكره التكلم بهذه اللغة ، ولا يتحرج ان يطالب بالغاء قواعد الاعراب وتسكين آخر الكلمات وجعل اللغة العربية الفصحى كأي لهجة من اللهجات العامية .

أنتم كذلك بين اثنتين : اما ان تريدوا وحدة الشعوب العربية حقا ، وتكونوا مؤمنين بهذه الوحدة ، حراصا عليها مستعدين للجهاد في سبيلها بالحياة والنفوس ، والاموال والمنافع ، ومهما تكن ، واذن فلا بد من ان تجعلوا لغتكم العربية التي تكون وحدتكم لغة الشعوب لا لغة الخاصة . واما ان يكون حديثكم عن الوحدة كلاما لا أكثر ، وأعوذ بالله وأعيذكم من ذلك ، واذن فدعوا اللغة العربية تموت ، ودعوا اللغات العامية تصبح لغة كتابة ، وانتظروا بعد ذلك اذا اراد السوري ان يقرأ لكاتب مصري ان يضطر الى ترجمته الى لهجته السورية ، وان يضطر العراقي اذا اراد ان يقرأ لسوري ان يترجمه للهجته العراقية .

اختاروا فليس لكم بد من الاختيار ان نحن مضينا فيما نحن عليه وأبينا ان نيسر قواعد النحو والكتابة وان نتيح للشباب والصبية ان يقرأوا ليفهموا لا ان يفهموا ليقرأوا ، فعندئذ لا بد ان تنشأ عن هذه اللغة العربية الفصحى القديمة لغات مختلفة ، كما نشأت الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية عن اللغة اللاتينية القديمة ماتت اللاتينية وخلفها أبناؤها وبناتها ، فهل تريدون ان تموت اللغة العربية ، وأن تخلفها بناتها التي نشأت بالفعل في الاقطار العربية المختلفة ؟ .. هذه هي المسألة ، اختيار وأنا أعلم أنه ليس أشق على الانسان من الاختيار . فنحن نحب القديم ، ولانستطيع التفريط فيه الا بعد مشقة وجهد وعناء ، وبعد أن تتمزق قلوبنا حسرة ، ولكن لا بد مما ليس منه بد .

وبعد فأنا لا ادعوكم الى هجر القديم مطلقا ، وعسى ان أكون من أشد الناس محافظة على قديمنا العربي ، و لا سيما في الادب واللغة ، ولكن لم لايكون النحو القديم ، والكتابة القديمة ، والبلاغة القديمة ، وكل هذه العلوم العربية التي أنشئت في عصر غير هذا العصر الذي نعيش فيه .. لم لا يكون هذا كله متطورا كما تطورت اللغة ، نحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات ، وفي المعاهد ، ونتيح للملايين البائسة من الصبية والشباب ان يتعلموا تعلما قريبا سهلا ، عسى ان يتخرج من بينهم من يضيف الى ثروة هذا القديم ، ويحسنه اكثر مما نحسنه نحن ، ويحيى هذا التراث القديم أكثر مما نحييه نحن .

أنا أعرف أن هذا كله لا يرضي كثيرا من الناس ، لا في دمشق وحدها بل في مصر وغيرها من البلاد العربية ، ولكني لا أحب ان أكذب العرب ، وقد قيل ان الرائد لا يكذب قومه ، ولا أحب ان أكون كهؤلاء الذين يقولون ان أمة محمد بخير ، ولا اريد ان اكون كهؤلاء الذين يطمئنون في المكان القلق ، انما احب وأحب للمواطنين من العرب ان يكونوا أيقاظا لا نياما وأن لا يؤخذوا على غرة ، وأن ينظروا ذات يوم فاذا هم يدرسون ويجتهدون ويجدون ويكدون لأنفسهم ، لا للشعوب ، لا بد اذن من ان ننظر في هذا كله ، وأن ننظر فيه نظرة الشجعان الذين يواجهون الحقائق ولا يستخفون منها ونظرة الناصحين الذين لا يريدون ، ان يستأثروا بالعلم دون العامة ودون الشعب ، وحسب الدنيا شقاء ان يكون فيها المستأثرون بالمال ، والمستأثرون بالحياة المادية ، وشر الاستئثار هو الإستئثار بما خلقه الله ليكون شائعا بين الناس جميعا وهو العلم والمعرفة والثقافة ، لا ينبغي لعلماء اللغة

العربية ان يؤثروا أنفسهم بالعلم العربي ، بل يجب ان يشيعوه ، ولا ينبغي عليهم أن يظنوا أنهم حين ينشرون كتابا من كتب القدماء يشيعونه حقا ، فالكتاب لا يشاع الا بين الذين يستطيعون أن يقرأوه ويفهموه ، ويتصرفوا به ، سلوا انفسكم كم عربيا قرأ هذا الكتاب او ذاك من كتب الجاحظ ؟ وسلوا انفسكم كم عربيا قرأ كتاب البخلاء . او كتاب التربيع والتدوير ؟ وما شئتم من الكتب القديمة التي نقرأها فنجد فيها المتعة ، والتي يقرأها بعض المستشرقين فيجدون فيها المتعة .. سلوا أنفسكم كم عربيا قرأ هذه الكتب ، قرأها العلماء وأشباه العلماء وطلاب العلوم العالية ، فأما ملايين العرب فلا يعرفون عنها شيئا ، وأعرف قوما اذا ذكرت لهم هذه الاشياء هزوا رؤوسهم ورفعوا أكتافهم واستهزأوا من ذاكريها ..

ليس من شك في أني حين أتحدث في هذا كله ، أتحدث الى فريقين من الناس ، أتحدث قبل كل شيء الى العلماء الذين يستطيعون الخير ولكنهم لا يقدمون عليه ، ثم أتحدث الى الشباب المتعلمين الذين من حقهم ان يطالبوا العلماء ان ييسروا لهم لغتهم ، وبأن لا يباعدوا بينهم وبين عروبتهم ، ولا أشك ولا يجد الشك الى نفسي سبيلا بان الحكومات العربية اذا قال لها العلماء / هذا هو النحو الجديد الميسر ، الذي يلائم عقول الشباب في هذا العصر ، ولا يمس جوهر اللغة العربية من قريب ولا من بعيد ، ولا يغير من طبيعة اللغة العربية شيئا ، ولكنه يتيح للشباب ان يتعلموا اللغة وأن يتقنوها ، وأن يتكلموها ، و ان يقرأوها وأن يفهموها ، لا اشك مطلقا بأن الحكومات عندما يقدم اليها العلماء هذه الكتابة اليسيرة ، التي تتيح للشباب ان يقرأوا قراءة صحيحة ،ويفهموا فهما صحيحا ، ويجعلوا اللغة جزءا من قلوبهم ، ويجعلوها جزءا من حياتهم اليومية ، لا لغة متكلفة يتكلفونها ، ان استطاعوا أن يتكلفوها - في اوقات الحاجة .. اذا قدم العلماء هذا كله الى الحكومات العربية فأنا مطمئن كل الاطمئنان الى أن جميع الحكومات العربية لن تتردد في اقرار هذا النحو ، وفي اقرار هذه الكتابة ، وفي اشاعة هذا النحو في المدارس ، وفي اشاعة هذه الكتابة ايضا .

ولقد رأيت مرة كتابا من كتب المطالعة في المدارس الابتدائية عندنا في مصر ، طفت عليه (البداغوجية) فويل لنا من (البداغوجية .. طفت عليه (البداغوجية) فزعمت ان اللغة العامية قد تكون ايسر لافهام الصبية ، فأدخلت بعض الجمل وبعض الالفاظ العامية في هذا الكتاب . فلما تحدثت في ذلك الى وزير التربية والتعليم لم يتردد في ان يعدني بالنظر في تلك الثورة ، فقدموا

أيها السادة العلماء ، والحديث هنا موجه الى مجامعنا الثلاثة التي تأتمر الآن في هذه العاصمة العربية الخالصة ، قدموا أيها السادة العلماء الى الحكومات كتابات ميسرة ونحوا ميسرا ، وقربوا لغتكم من الشعوب ، وثقوا بأنكم ان فعلتم فستبلون بلاء خيرا من البلاء العظيم الخطير ، الذي ابلاه نحاة البصرة والكوفة وبغداد في العهد القديم ..

طه حسين

كلنا ذلك الرجل

قال الحوبي : قال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي : رأيت بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة فسألني كيف حالك مع أهلك ؟

فقلت :

اذا رأت اهل بيتي الكيس ممتلئاً ... تبسمت ودنت مني تمازحني

واذا رأته خلياً من دراهمه ... تجهمت وانثنت عني تقابحني

فقال لي : صدقت كلنا ذلك الرجل .

محمد الخموسي الحناشي

المتشرد

(فأما اليتيم فلا تقهر)
– قرآن كريم –

منصور صبي جميل الطلعة حاد الذكاء ، ماتت امه وهو في السابعة من عمره ، وبعد وفاتها بزمن يسير اقترن والده بامراة ثانية تفوقهاحسنا وتصغرها سنا ، وكان والده رجلا كادحا محدود الدخل ليس له عمل معين ولامنتظم كأي عامل يومي لا يجيد صناعة او حرفة ، وانما يقوم بأي عمل يصادفه ويكون قادرا على أدائه ، ورث عن ابيه منزلا صغيرا بسيطاهوكل ما يمكله في هذه الحياة ، وهو رجل محافظ ضيق التفكير هادىء الطبع يعيش ليومه ..

عاش مع زوجته الراحلة عشر سنوات لم يحدث ان تشاجرا خلالها ولو مرة واحدة ، ولولا الحاح اقاربه ومعارفه عليه بالزواج لظل ارملا مدة طويلة من الزمن اكراما لذكراها ، بدأ كل شيء يتغير بالبيت منذ اليوم الاول من حلول الزوجة الجديدة به ، وقد جعل ذلك منصورا يشعر بغياب امه بصورة اكثر وضوحا ، وانتابه شعور بالخوف من تلك المرأة الغريبة وعزم بينه وبين نفسه على تجنبها ، وبدأ صراعه معها ، ولما يمض على اقامتها بالبيت الا بضعة اسابيع ، كانت تؤنبه وتغلظ له القول لاتفه الاسباب كما كانت تحرم عليه اللعب مع الاولاد ، وتكلفه من الاعمال فوق طاقته ،وبشبابها وجمالها ودهائها استطاعت ان تمسك بزمام زوجها وان توجهه الوجهة التي تريدها ، وبدأت توغر صدره على ولده ، متهمة اياه ظلما بانه شرس الاخلاق معها ولا يطيع لها امرا ولا يتورع عن سبها احيانا ، ويوما بعد يوم اخذت مشاعر الوالد تتحول عن ولده الوحيد وبدأ يقسو عليه ويعنفه ويشتد في ضربه في بعض الاحيان .

واحتمل الطفل المسكين ما فرض عليه من عذاب ودفن الامه في صدره الصغير، لم يكن يصدر عنه اي رد فعل وكان يتقبل ما يلقاه منهما بالصبر والصمت والاذعان ، وفي الليل عندما يأوي الى فراشه ويخلو الى نفسه يمضي على تذكر والدته وفي تخيل صورتها الحبيبة وكيف كانت تحنو عليه وتؤثره ولا تبخل عليه بشيء ، و لا تكلفه حتى بأيسر الاعمال ، ولا تحرمه من اللعب مع رفاقه ، بل كانت تدفعه الى ذلك دفعا اذا رأته قلقا او منقبضا . وتظل صور الصور الجميلة الزاهية تتوالى على خياله ودموعه الساخنة تنساب على خديه في صمت حتى ينام .

انجبت سعيدة لزوجها ولدا وكانت فرحته بولده الجديد لا تعادلها شيء، وكل من يراه – وهو في فرحته العارمة بذلك الطفل – يحسب انه الولد الوحيد الذي رزق به بعد طول يأس وحرمان ، وصار لا يحلو له لعب الا معه ولا حديث الا عنه ، وصار منصور لا يحتل الا ركنا صغيرا في عواطفه . واصبح الجو مهيأ لسعيدة بأن يصبح كل شيء بالبيت رهن . يتها ، كانت في الماضي كثيرا ما تصطدم مع زوجها بسبب هذا الأمر او ذاك وبصورة خاصة اذا كان الحال يتعلق

بمنصور ، كان يعنفها دائما من اجلـه ويضربها احيانا اذا هي اساءت معاملته او قست عليه ، وكان يتساهل معها في كثير من الاشياء الا في شأن ولده ، اما الان فقد اصبحت الحال غير الحال ، صار كل اهتمامه موجها الى الطفل الصغير ، لم يعد يسأل عن منصور كثيرا ، لم يعد يحتضنه او يجلسه على حجره او يلاطفه او يسأله ان كان جائعا او يشكو من شيء او يريد اي شيء ، وبدأ منصور يشعر بالعزلة ، لقد اصبحت المسافة التي تفصله عن ابيه تتسع يوما بعد يوم ، وأخذت سعيدة تزداد قسوة في معاملته رغم استقامته وطاعته لها ، ولم تكتف بذلك بل سعت الى والده لاقناعه باخراجه من الكتاب وتوجيهه الى العمل ليساعده على تكاليف الاسرة ، ويعارض والده هذه الرغبة اول الامر محتجا بصغر سن الولد، وطراوة عوده وعدم تأهله للعمل لكنه يرضخ في النهاية لارادتها .

تقلب منصور في عدة اعمال كأجير وكان يتقاضي نصف ما يتقاضاه الرجل العادي نظرا لصغر سنه وقلة خبرته بالعمل . وقد لاقى نصيبا كبيرا ومتاعب لا تحصى في اول عهده بالعمل، وبمرور الايام تعود على كثير من الاعمال وحذقها واصبح ينافس الرجال فيها ، واصبح يتقاضى نفس الاجر الذي يعطى لهم ، لقد صار رجلا قبل الاوان ، وذات يوم عاد الى البيت بعد ان تقاضى اجرته عن اسبوع عمل لدى احد الملاك ، كان يبدو مهموما ، محزونا عابس الوجه ، مقطب الجبين ، خافض الرأس ، متثاقل الخطو ، لم يتبادل الحديث مع احد طوال الطريق ، وكان يرد على من يحييه باقتضاب مكتفيا برفع يده احيانا ، ولما سأله والده عن سر انقباضه اجابه بان اجرة الاسبوع قد ضاعت منه .

ونظر الرجل الى زوجته فزمت شفتيها ، وقوست حاجبيها وقالت :
-انه لا يقول صدقا ، لقد اخفى المبلغ ليحتفظ به لنفسه .

ومضت تحرض والده عليه ، واحتد النقاش بين الوالد وابنه ، وكلما رأت من زوجها بادرة تومىء بأنه اصبح على استعداد لتقبل الامر الواقع تدخلت في النقاش وحولته الى الوجهة التي تريدها ويقسم منصور ويكرر القسم بأن المال ضاع منه حقا ، وانه بحث عنه في كل مكان مر به فلم يعثر له على اثر .

وتثور ثورة الاب وينهض اليه ويمسكه به ويمضي يكيل له الصفعات واللكمات بكل قسوة وعنف بينما كان صوت زوجته يعلو في ارجاء البيت صخابا عاليا موقدا نار غضبه ولا يتركه الا بعد ان تخور قواه ، وينهض منصور من على الارض ويتحامل على نفسه ويتجه الى غرفته فاقدا كل احساس بالالم ويتمدد على الفراش بكامل ملابسه ، ويمضي يحملق في سقف الغرفة المظلمة بعينين مفتوحتين جامدتين ليس بهما دموع ، ورفع يده ومضى يتحسس باصابعه على الجانب الجريح من فمه حيث لامست الدم المتجمد عليه ، ودون شعور مرت بخياله صورة حياته منذ ان بدأ وعيه بالحياة ، والح عليه خيال امه وملأت صورتها فضاء الغرفة المظلمة وارتجف جسده وتقلصت كل عضلة فيه واعتراه ما يشبه الحمى وأجهش بالبكاء في ثورة نفسية مكبوتة ، واغتسل وجهه بالدموع واختلط الدمع بالدم والظلام ، وشرب دمعه والمه ونام ، وفي الفجر، غادر فراشه وخرج من المنزل في هدوء ، لقد عزم على ترك القرية ولم يأخذ معه شيئا سوى بعض ملابسه التي اعتراها القدم وافقدتها اشعة الشمس الحارقة وكثرة الغسل لونها وبضع مئات من المليمات كان قد وفرها من مصروفه ، وصعد الى ربوة عالية وتطلع طويلا الى القرية النائمة ثم تابع المسير .

وبلغ الطريق المعبدة ، ثم وقف على حافتها في انتظار ان تقف له احدى السيارات المارة بها في اي من الاتجاهين لتحمله الى احدى المدن الكبيرة .

كان الفصل شتاء وكان البرد شديدا في ذلك اليوم ، وظل في وقفته تلك بعض الوقت ملوحا بيده للسيارات العديدة التي كانت تمر به في هذا الاتجاه او ذاك دون ان يعيره اصحابها اهتمام ، كان معظمها سيارات خاصة وشاحنات ، اما سيارات النقل العام فقد كانت على قلتها مكتظة بالركاب دائما لذلك كانت تمر به دون ان تتوقف او حتى تهدىء من سرعتها .
وبدأ القلق يراوده فهو لا يريد ان يعود الى المنزل مرة اخرى كما لا يريد ان يطول وقوفه بذلك المكان حتى لا يراه احد من ابناء القرية الذي قد يشك في امره ويثنيه عن عزمه او يجبره على العودة الى اهله او يخبرهم بخبره .
ومضى يلتفت هنا وهناك في حيرة وقلق واخيرا يجيئه الفرج حيث تقف سيارة نقل بضائع صغيرة على مقربة منه وينزل

سائقها زجاج النافذة ويطل برأسه منها ويقول له :
- الى اين تقصد ايها الفتي ؟
ويخبره منصور بشيء من الاضطراب عن وجهته ويفتح له الرجل باب السيارة ويقول له :
- اصعد .

وتنطلق السيارة تنهب بهما الطريق الاسود الطويل الذي كان يتلوى هنا وهناك كأنه ثعبان خرافي عملاق .

وأحس منصور بقطرات خفيفة من العرق تندى جبينه الملتهب رغم برودة الجو، وبرغم المدة الطويلة التي قضاها في الخلاء معرضا لنسيمات الصباح اللافحة القاسية . واخذ قلبه الصغير يدق دقات سريعة متلاحقة كأنها دقات طبل يردد لحن انشودة وداع دامعة . وتوزعت عقله شتى الافكار . لقد قرر الرحيل بمحض اختياره ومطلق حريته ، انه منذ الان يعيش اختياره ويبدأ خوض تجربته الذاتية ، فهل يتراجع ، ؟ هل يقلع عن عزمه ويرجع الى منزل أبيه ؟ كلا ، وسوف يمضي في التجربة حتى النهاية ، ومهما حدث ، وينتبه من تفكيره على صوت السائق وهو يقول له :
- لعلك تقصد زيارة بعض الاهل ؟
ويجيب الفتى وفي صوته الم مكبوت
- ليس لي أقارب بالمدينة .
- اذن فأنت ذاهب في سياحة قصيرة ، او للبحث عن عمل ؟
- نعم اني ذاهب لغاية العمل .

وبعيد منتصف النهار بقليل بلغ المدينة الكبيرة التي ذكر منصور لصاحب السيارة انهاهدف رحلته وكان قد سمع من اسمهامن والده عدة مرات ، وعرف منه انها توجد في ذلك الاتجاه ، واوقف الرجل السيارة بأحد المنعطفات القليلة الازدحام ونزل منصور وودع الرجل الذي رفض ان يأخذ منه شيئا مقابل حمله اياه ، ووقف الفتى يتابع ببصره السيارة وهي تغدو في الشارع الطويل الى ان اختفت ، واحس بقلق مفاجيء ومضى يتطلع مبهورا الى الشوارع الممتدة من امامه ومن خلفه وعلىجانبيه والى تلك الاشجار الظليلة المتناسقة التي تحف بالطريق من جانبيها ، والى اعمدة النور العالية الكبيرة المنتصبة بها . وحسب اول الامر ان شيئا ما حدث بالمدينة نظرا لكثرة الناس وتدافعهم رجالا ونساء بشوارعها ، وغادر موقفه ومضى يتمشى في دروب المدينة دونما هدف محاذرا التصادم بالسيارات والعربات والاليات الكثيرة .
ورأى الناس يسيرون بطرق خاصة بهم تحاذى الطريق الاصلية وترتفع عنها قليلا ، كانوا خليطا متباينا في الوانهم وملبسهم ، فيهم اليهودي والفرنسي والايطالي والمالطي الى جانب ابناء البلاد الذين يغلب على لباسهم اللباس الوطني المتعدد الاشكال ، ومعظم نسوتهم محجبات يرتدين السفاري الابيض الجميل ويضعن على وجوههن اقنعة حريرية سوداء تضفي عليهن جمالا وسحرا وانوثة .

ومضى منصور يتابع المسير من شارع الى شارع متطلعا الى الدكاكين الكثيرة وما تحويه من البضائع والاشياء التي وضعت في رفوف خشبية في اتقان وحسن تنسيق ، كان يقف في بعض الاحيان امام واجهة احد تلك المحلات ملتهما بنظراته تلك الادوات واللعب والاواني الجميلة الثمينة المعروضة في ابهى الصور .. وكان يشعر بالاضطراب كلما مربه احد رجال الشرطة وكان اكثرهم من الفرنسيين ويزداد اضطرابا كلما رأىاحدى السيارات ، او العربات العسكرية تمر على مقربة منه مقلة عددا من جنود الاحتلال بوجوههم الحمراء وعيونهم الزرقاء وشعرهم الاشقر، لم يسبق له ان رأى جنديا او شرطيا من قبل باستثناء الجنود من ابناء القرية الذين كانوا يحضرون الى القرية من وقت الاخر لقضاء اجازاتهم بين اهلهم وذويهم ، ومضى يضرب في دروب المدينة وشوارعها وساحاتها متطلعا في تعجب واعجاب الى بناياتها الفخمة العالية ، ويشعر بالجوع والاعياء وكانت الشمس آخذه في الانحدار نحوالمغيب اولاول مرة في حياته برم من رؤية الشمس وهي تغيب في الافق البعيد ، لقد كانت تحجبها عن ناظريه تلك المباني الشاهقة المتلاصقة .

ويدس يده في جيبه متحسسا النقودالقليلة التي معه ، لقد سمع الكثير من قبل من انتشار النشالين والاشرار بالمدن الكبيرة . ودخل دكانا لبيع "الكسكروت" لم يكن يوجد به الا عدد قليل من المقاعد والمناضد نظرا الى ان اكثر الناس قد اعتادواتناول " الكسكروت " وهم وقوف او اثناء سيرهم بالطريق ، وقد جلس على بعض تلك المقاعد نفر من الناس انهمكوا في تناول طعامهم في صمت .
فاتجه الى منضدة خالية وجلس على المقعد الصغير وتقدم منه صاحب المحل وقال له في لطف :
- تفضل .

ودون تفكير هتف الفتى قائلا :
- هات لي اي حاجة ..
انه يجهل اسماء الاطعمة بالمدينة فقال له الرجل :
- هل أحضر لك " كسكروت " بالتن ..؟
فأومأ منصور برأسه ان نعم .

وبعد لحظات عاد الرجل حاملا الطعام ونظر منصور الى الناس من حوله في شيء من التحرج والقلق ، انها المرة الاولى التي يتناول فيها طعاما خارج قريته وفي محل عام . ورأى كل من بالدكان قد انصرفوا بكليتهم الى تناول مابأيديهم من طعام وشعر ببعض الاطمئنان ومد يده الى الرغيف الصغير المحشو بالتن والزيتون والبطاطا والفلفل والزيت ، وامضى يزدرد طعامه في لذة وشهية .
ومن حين لاخر يرفع رأسه لينظر الى رواد المحل والى من يستجد منهم او ينصرف ، ان الاكل خارج البيوت كبيرة لا تغتفر في قريته ، وها هو اليوم يتخلى عن عادات قومه . ولكنه الجوع والبعد عن الاهل والموطن ، واعترته كآبة من الحزم واحس بانقباض مفاجيء ونهض من مجلسه بعد ان فرغ من طعامه ومضى نحو صاحب الدكان وقال له :
- كم تريد يا سيدي ؟
واجاب الرجل قائلا :
- خمسون فرنكا .
فنقده المبلغ وانصرف وابتلعه الشارع الذي كان يعج بالناس والسيارات .
كان منظر المدينة رائعا جميلا في الليل، عشرات من اعمدة النور ترسل بأضوائها الساطعة الباهرة وعشرات من الدكاكين والفنادق والمساكن تبعث بأنوارها المتلالئة المتعددة الالوان . لقد كانت المدينة مثل عروس فاتنة من الجن تسبح في بحيرة من النور ، وسار وسط جموع المارة وصدى احاديثهم الصاخبة وضحكاتهم العالية ودوي محركات السيارات وصفير ابواقها الحاد يملأ سمعه ويزيد من ضيقه وكآبته ، ومضى يسير الى غير هدف غير شاعر بما حوله . لماذا ترك قريته الصغيرة الهادئة الجميلة وجاء الى هذه المدينة الغامضة التي يصطرع فيها الصخب والضجيج ؟ ليته لم يفعل .. لقد احس - منذ وطئت قدمه ارض هذه المدينة - بالغربة والفراغ ، ان احدا لم ينتبه الى وجوده ، انه لم يعرف بعد بأن لا احد هنا يهتم بالاخر وانما الكل يعدون ويتسابقون ويتدافعون في سباق المنافع والشهوات اللاهثة المسعورة واذا تعثر أحدهم او سقط اثناء الطريق داسته الاقدام وتخطته ، وواصلت سيرها الحثيث الدائب نحو هدفها المرسوم ، وفي شارع فرعي يكاد يكون خاليا من المارة ، استند الى جدار احدى البنايات وشعر برغبة ملحة في البكاء ، واهتز جسده وانهمرت دموعه غزيرة ساخنة على خديه الملتهبتين وبكى ، بكى طويلا في حرقة والم ، وبعد فترة من الوقت هدأت ثورته ، وكفكف دموعه وغادر المكان ومضى يسير في هدوء وقد شعر ببعض الراحة .

*

الليل يغزو المدينة ، واخذ الناس في العودة الى بيوتهم و بدأت بعض الشوراع تبدو شبه خالية من المارة ، وقد أقفلت معظم الدكاكين والمحلات التجارية فعليه ان يسرع بالبحث عن مكان يقضي فيه ليلته على ان يسقط من حسابه هذه البنايات الشامخة العالية المتعالية ، لقد كان يسمع ان في كل مدينة توجد احياء شعبية فقيرة فأين مكان تلك الاحيا من هذه المدينة ؟ ولقيه شيخ تبدو عليه آثار النعمة فتقدم منه وحياه في أدب واخبره بأنه غريب عن المدينة وطلب منه ان يدله على فندق شعبي يقضي به ليلته ، ولا تكلفه الاقامة به مالا يطيق ، فقال له الرجل وهو يشير بيده الى احد الشوارع :
- سر بذلك الشارع دون ان تنحرف يمينا او شمالا فسوف ينتهي بك الى المدينة القديمة وهناك تعثر على بغيتك .

وشكر منصور الشيخ وحياه ومضى يغذ السير نحو المدينة المنشودة ، وتراءت له المدينة بمبانيها القديمة المنخفضة ودروبها الضيقة الملتوية واضوائها الخافتة الباهتة ، واحس ببعض الانقباض بالله ما اكبر الفارق بين هذه المدينة وتلك التي كان بها منذ حين .. وواصل السير .. وبدأ البحث .. ودون كبير عناء وفق في العثور على فندق من تلك الفنادق الشعبية الرخيصة كان معلوم المبيت به يكاد يكون رمزيا . في كل غرفة من الغرف القليلة ينام جماعة من الناس قد يصل عددهم الى الثمانية احيانا ، وطلب منه صاحب المحل ان يستظهر ببطاقة تعريف او ما يقوم مقامها فأخبره بأنه لا يحمل اوراقا رسمية معه، ولم يتشدد الرجل في الطلب ، وقرر قبوله بفندقه متظاهرا بالعطف عليه نظرا الى انه غريب عن المدينة وصغير السن ، وقاده الى غرفة من تلك الغرف وفتح بابها وضغط على زر النور الكهربائي وكان بها خمسة اشخاص نيام واشار له

بيده نحو سرير قديم كان خاليا وقال له
- تفضل يا ولدي .. تصبح على خير .

واطفأ النور واغلق الباب وانصرف ، ووقف منصور في مكانه حائرا ، وقليلا قليلا بدأ النور يتسرب في الغرفة عن طريق زجاج النافذة الصغيرة العالية الوحيدة بها ،. وتقدم في هدوء وتهيب ، نحو الفراش الخالي ، لم يسبق له ان نام مع غرباء ، ورفع الغطاء واندس تحته بكامل ملابسه ، ومد يده يتحسس الفراش الذي ينام عليه ، انه ليس سيئا على ما يبدو ، ليس اسوأ من فراشه الذي كان ينام عليه ، وعلى صورة فراشه المتواضع بغرفته الصغيرة بمنزلهم البسيط بقريته الحبيبة النائية استغرق في النوم ، وفي الغد استيقظ مبكرا ، ونقد صاحب المحل معلوم المبيت عنده بعد ان اعلمه بأنه سوف يعود في الليل ومضى يتسكع في ازقة المدينة القديمة وطرقاتها مبديا لاصحاب الدكاكين التجارية وارباب الصناعات بها رغبته في الحصول على عمل وكان جوابهم جميعا يتفق في عدم حاجتهم اليه . وكان بعضهم يرد عليه ردا قبيحا كأنه جاءهم متسولا ، واظلمت الدنيا في عينيه واحس بخيبة امل كبرى .

وعند الظهر عاد الى الفندق حاملا معه رغيفا صغيرا وقطعة جبن اشتراهما من احد الباعة المتجولين ، وحي صاحب الفندق ومضى نحو الغرفة التي مضى بها ليلته الماضية ، لم يكن بالغرفة احد فارتاح لذلك كثيرا . وجلس على الفراش وشرع في تناول طعامه ، وبعد ان فرغ من الاكل اغفى قليلا ، وبعد ساعة او نحو الساعة نهض وغادر الفندق ، وقد عزم على الذهاب الى المدينة الحديثة هذه المرة ، تلك المدينة الساحرة ، وبدأ محاولاته لكن الحظ لم يحالفه كالمرة السابقة ، كان بعض التجار يسألونه عن الصناعات التي يتقنها وبعضهم يسأله ان كان يحمل اوراقا رسمية المهم لم يظفر بالحصول على عمل . وفي صبيحة اليوم الثالث من وجوده بالمدينة وبينما كان ماضيا لمتابعة محاولاته من جديد مع ارباب مقاولات البناء استوقفه بعض الشباب وسلموا عليه في مودة وخاطبهم اكبرهم قائلا :
- منذ امس رأيناك تتجول في شوراع المدينة وقد جعلنا مظهرك وترددك على اصحاب المحلات التجارية نعتقد بأنك اتيت من بلد بعيد وتبحث عن عمل .
فأطرق منصور ثم رفع رأسه وقال :
- نعم .. اني ابحث عن عمل .

ويواصل الشاب حديثه قائلا:
- ان الحصول على عمل بالمدينة امر صعب للغاية وخاصة على من كان غريبا مثلك.. وعلى كل حال لا تحمل هما ، اننا نرحب بك صديقا بيننا ، وسوف أتقاسم انا وزملائي جميع مصاريفك اليومية ريثما نجد لك عملا ويسرنا ان تقبل صداقتنا .
وصاح بقية الشبان في صوت واحد :
- أهلا بك صديقا بيننا .
ونظر اليهم منصور نظرة شكر وامتنان وقال بصوت خافت :
- أهلا بكم .
ومد يده مصافحا ، وشد الجميع على يده في حرارة الواحد بعد الاخر .
ويعود اكبرهم مواصلا حديثه :
- والان اسمح لي ايها الصديق .. ولكن قل لي ما اسمك اولا ..؟
ويهتف منصور :
- منصور .
ويتابع الشاب كلامه :
- اسمح لي ايها الصديق منصور بأن اقدم لك زملائي : المولدي وشهر الفنك ، عزة واسمه الكامل عز الدين ، ، شناب واسمه القديم فرج ، ومحسوبك حمه . وكان اسمي في ما مضى حميدة ، وانت ايضا يجب ان تختار لك اسما جديدا مثلنا فقال احد رفاقه :
- سوف ننظر في ذلك فيما بعد .
ويرد عليه حمه قائلا :
- وهو كذلك .
ويسكت لحظة ثم يتابع يقول :
- هيا بنا الى احد المقاهي لنشرب نخب صديقنا الجديد ونحتفل بانضمامه الى مجموعتنا .

وسار الجميع وهم يتبادلون المداعبات والشتائم ويضجون بالضحك ،ومنذ ذلك اليوم الذي تعرف فيه منصور على تلك الجماعة من الشباب تغير كل شيء في حياته واصبح واحدا منهم يحيا حياتهم ويسلك مسلكهم ويسير على نسقهم ، واطلق على نفسه اسما جديدا مثلهم هو"المتشرد" وتقلب في عدة اعمال مثل مسح الاحذية وبيع التبغ والصحف والمجلات والمتاجرة في العاديات وغير ذلك ، وبمرور الزمن صار خبيرا بحياة المدينة واسرارها واخلاق اهلها ، وبالتجربة والممارسة عرف ان لا مكان فيها للضعيف والفقير ،لا مكان فيها للقيم الى جانب المال والجاه والسلطان . وعرف منصور او " المتشرد" طريقه الى الحانات او المواخير ، وصار حاميا لبعض المومسات نظير اجر يدفعنه له ، هو الذي يحدده وله ان يرفع من قيمته الى ما يشاء ومتى يشاء

لقد منحته الطبيعة جسما قويا استغله اسوأ استغلال ، وبرغم ادمانه على السهر وتناول شتى انواع المخدرات فان جسمه لم يتأثر بذلك كثيرا ، واصبحت له مجموعة من الاتباع بعد ان انفصل عن المجموعة الاولى على اثر صدام وقع له مع صديقه " حمه " بسبب إحدى البغايا ، كان اشتباكا عنيفا ووحشيا سقط في نهايته صديقه وخصمه على الارض فاقدا الوعي والدم ينزف بغزارة من انفه وفمه ، انه سوف يظل يذكر دائما وبمرارة تلك الحادثة ، وعلى اثر تلك الحادثة اشتهر امره واصبح الناس يحذرونه ويتقون شره واصبح فتوة حية وبعض الاحياء المجاورة .

وعرفته مراكز الشرطة وقاعات المحاكم لكن احدا لم يعرف مكانه مولده وابن من هو ، لقد تعمد اخفاء حقيقته عن كل الناس زاعما انه ضاع من اهله وهو صغير السن ولا يعرف شيئا عن اسرته ومسقط رأسه مستهدفا بذلك الابقاء على سمعة اهله وعشيرته والحفاظ على نقاوة ونصاعة اسم قريته .

ويمضي يواصل مسيرته في الحياة وحيدا غريبا هازئا من كل شيء وبكل شيء كافرا بكل المبادىء والقيم ، ويمضي في دربه المظلم الشائك الطويل بلا غاية . اوهدف .. بلا امل وبلا ارادة في الحياة .

محمد الخموسي الخناشي



حُكْم

يروى عن ابي الاسود الدؤلي أنه خاصم امرأته ، وكان قد طلقها ثم أراد أن ينتزع ابنا له منها ، فأبت عليه واحتكما الى زياد ، فقالت المرأة : أصلح الله الامير، هذا بني :

كان بطني وعاءه ، وحجري فناءه ، وثدي سقاءه ، أكلؤه اذا نام وأحفظه اذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، حتى اذا استوفى فصاله ، وكملت خصاله ، واستوكعت أوصاله ، وأمّلتُ نفعه ، ورجوت دفعه ، أراد أن يأخذه مني كرها ، فآدني ، أيها الامير ، فقد رام قهري ، وأراد قسري " فقال ابو الاسود : " أصلحك الله ، هذا ابني ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وأنظر في أوده ، وأمنحه علمي ، وألهمه حلمي ، حتى يكمل عقله ، ويستحكم فتله ، فقالت المرأة : " صدق ،أصلحك الله ، حمله خفا ، وحملته ثقلا ، ووضعه شهوة ، ووضعته كرها ، " فقال له زياد : " اردد على المرأة ولدها ، فهي أحق به منك، ودعني من سجعك ".

مسجد قرطبة

شعر: زكي قنصل

احتفل المعهد الثقافي العربي الارجنتيني في بونس ايرس بمرور الف ومئتي عام على بناء مسجد قرطبة في اسبانيا فأنشد الشاعر هذه القصيدة :

برغم الالف لم تبرح جديدا ... تدور على فم الدنيا نشيدا
كأن يد المزخرف لم تفارق ... جدارك ، او تعطل منك جيدا
اذا عصر مضى استقبلت عصرا ... قرير العين مختالا سعيدا
كما تهتز روح الجد تيها ... بما تحويه أدهشت الحفيدا
جمعت الى طريف المجد ، يزهو ... بذكر امية ، المجد التليدا
تولى من بناك وأنت باق ... بقاء الشمس تأبى ان تبيدا
ودالت دولة الاسلام ، لكن ... حفظت لدينه الذكر الحميدا
اذا لم يعتصم بالدين سيف ... فليس كلامه الرأي السديدا
يطوف ببابك الداني ويهفو ... الى رياك من يحيا بعيدا
أحن اليك مهما شط دربي ... فكيف أحقق الحلم الشريدا ؟
أنا العربي حتى العظم ، مهما ... يكن حظي من الفصحى زهيدا
أذانك لا يزال يهز روحي ... فكيف تريد ألا استزيدا ؟
تعايش في جوارك دين عيسى ... ودين محمد زمنا مديدا
فلا الدير استباح مقام طه ... ولا هذا مكان الدير شيدا
أقول لمن يباهيني بحصن ... حصين .. قد تفارقه طريدا
بيننا للصلاة ، وأنت تبني ... لتجعلنا متاعا أو عبيدا
وقلبا بالسلام وأنت تدعو ... الى الحرب ، وتمطرنا وعيدا
ألا بعدا لحصنك ، فهو وكر ... يضم الويل والحقد الشديدا
اذا خلت الجوانح من شعور ... فقد صارت جمادا او جليدا

* * * *

شقيق المسجد المحزون ، انا ... سنجعل كل يوم منك عيدا ...
يذكرني - وقد أوشكت انسى ... شموخ قبابك العهد المجيدا
زمان على النجوم لنا بنود ... تموج ندى ، وأحيانا حديدا
رعاك بنو العمومة فاستحقوا ... ثناء الدهر والحب الاكيدا
لئن سهروا عليك لقد أضافوا ... الى حسناتهم فضلا جديدا
وقد بروا القرابة فاستمرت ... على الاجيال ، لم تضعف وئيدا
ستبقى في جبين الدهر تاجا ... يشع .. وفي فم الدنيا نشيدا

* * * *

زكي قنصل

ما أبعد هذا المكان عن دنياكم الصاخبة وعالمكم الحي!
انني بعيد ، بعيد !
أكاد أحس أنني في اعماق الآفاق المنسيه ،
يتيه بصري فيها ، ويضيع في الحلم الرقيق الواسع ..

بعيدة عني الاودية المخضوضرة ومجاريها الرقراقة ،
بعيدة عني الاشجار والعصافير المزغردة المبتهجة ،
بعيدة عني الاحبة !!

وددت لو اعود الى حافة الجدول ،
اتظلل اوراق القصب اللطيفة ،
وتداعب يداي المياه القليلة المتسارعة ،
فتدغدغ اناملي بتسلسلها الغنوج الوادع ،
ويشدو صوتها الناعم الهنيء في أذني ...

وددت لو اعود فارقد تحت تلك الظلال ،
وتغيب نفسي في حلم طويل! يسير طالما تسير مياه الجدول،
فيطوف بالسفوح الريانة ! ،
وينحدر بين صف لطيف ! من العليق ، والعوسج،
ثم يدور حول الصفصافة فيلثم غدائرها المدلاة ،

ليعود فيتهادى في السهل الواسع ،
تحنو عليه السنبلات ، الخضراء ، المسمرّة ،
وتواكبه الحشائش تطرزها زهرات الربيع الناصعة..

وددت لو انام على ضفة ذلك الجدول ،
وأتظلل اوراق القصب التي تحتضنه ، . .
وددت يا أحبابي لو اعود اليكم في الليالي المقمرة ،
يتكيء واحدنا على الآخر وتتهادى بالمسير ،
وكل ماحولنا ، وماتحت أقدامنا ، وما فوق رؤوسنا ،
نشوان ! يحلم ، ويسبح بمجد هذه الطبيعة الهائئة . .

وددت يا حبيبي ! لو اكون معك ، وتكون معي ،
نرشف مياه النبع ،
ونجتاز النهر ، ونطوي السهل ، ونصعد الجبل ،
ونعتلي القمة ،
فتسكب الشمس اشعتها الاولى في اعيننا ،
ونشرف على السهل الذي طويناه ،
والنهر الذي خضناه ،
والسفح والهضاب التي قطعناها ،
ونهزأ عن بعد بالقرى المستقرة في اسفل الوادي ،
وهي ما زالت تتثاءب في يقظتها ،
منتظرة اشعة الشمس المباركة ،
ولتنتظر اذ ذاك ! ،

ولكنني بعيد عنكم ! بعيد ... وفي لجة البعد ،
فأنا في صومعتي اطوف عليكم بأحلامي ،
فأتخطى الصومعة ، وأجتاز الافق الواسع ،
وأسترحي في سريري المتواضع ،
وكان صدى اصواتكم ،
وابتساماتكم ،
وهمساتكم ،
وضحكاتكم ،
تهدهد نفسي وتنشيها ، فتسترسل في الرقاد ...
عساني اعود اليكم ، عساني اعود . . .

عبد العزيز ارناؤوط

ثلاث صور

لأبي الطيب المتنبي

ابراهيم ونوس

الصورة الاولى : ابو الطيب والسيف

أجهد نفسي ، ألملم أطراف تخيلاتي ، أستجمع ما بذاكرتي عن ابي الطيب المتنبي ، أدخل بين سطور كل ما كتب عنه ، أقص معاني قصائده قصيدة قصيدة ، وبيتا بيتا أتمتع في دقائق معانيها جزءاً جزءاً .. أفعل هذا بأناة وشفافية كي أخرج من اطار كل الذين كتبوا عن ابي الطيب ، أحاول ان انزع افكارهم من قعر ذاكرتي ، ابعدها اتخلص منها .. وعندما أكاد اتخلص منها ، واري ما تبقى منها يتجمع ، ويتصاعد كالبخار ، حتى اذا ما وصل الى سطح ذاكرتي ، تكاثف تحت سيطرة جنوح خيالاتي المتأججة ، فيعود قطرات صغيرة ، تتجمع وتتساقط ، لتستقر في اعماق ذاكرتي معزولة من جديد ..

ويخيل لي بعد ثورة الركود التي تعتريني حالتي عندما ابدأ بالخروج من اطار التفكير فيما كتب عن أبي الطيب ، انني ارى ملامح وجهه واضحة وهي تستعرض مخيلتي ، وبصيرتي ، أراها بارزة بينة ، متكاملة ، تعوم راقصة سامية ، بتلك النصاعة ، والبناعة كما كانت تبدو لابناء عصره وسط الهدير البشري الذي يعقب كل قصيدة ينشدها ، فأجده امامي فورا ، مندفعا بلا هواده ، بهذا [illegible] الذهني العجيب صورته النابضة بالحيوية ، والعنف والتألق مع [illegible]السيف ..

لماذا يرسم ذهني صورة ابي الطيب مع السيف ؟ ايكون من اجل ثمانين قصيدة ، و مقطوعة نظمها وهو يحمل السيف برفقة سيف الدولة الحمداني ؟ ام هي من اجل هذا البيت الذي قاله في العام ٣٥٣ هـ وقد اخذ يعبر سن الخمسين ، وبعد معاناته الطويلة المريرة طيلة اربعين عاما من حياته ؟

حتى رجعت واقلامي قوائل لي
المجد للسيف ، ليس المجد للقلم ؟ !

تنتابني الحيرة ، تجتاحني الافكار المتناثرة ، تعقبها التساؤلات الكثيرة ، فتتجمع في سؤال واحد :

ـ لماذا ارى ابا الطيب مع السيف؟ ومن المفترض ان تكون صورته مقترنة في نفسي ، ونفس كل متذوق لشعره مع القلم ، والكتاب .. فهو صاحب قلم وشعر وعلم ، .. وصاحب سيف ايضا ..

ويعود ذهني الى الوراء .. الى العام ٣٤٩ هـ بالتحديد عندما انشد قصيدته ذات المطلع الحزين في الفسطاط :

منى كن لي ان البياض خضاب
فيخفى بتبيض القرون شباب ٢

وقال فيها هذا البيت :

أعز مكان في الدنا سرج سابح
وخير جليس في الانام كتاب

ففي هذا البيت يحدد في فكرته وظيفة الفارس ، ويعتبر الخيالة والفروسية وامتطاء متون الجياد ، وخوض معارك البطولة والشرف اعز امكنة يستقر عليها انسان عصره .. وان الكتاب أمتع الرفقاء ،

والجلساء ، وهذه الفكرة لاتبدل فكرته اللاحقة في اعطاء الافضلية للسيف .. لان ابا الطيب عاش في عصر السيف ، فلم يجد رجلا طموحا نال حقه ومجده بغير السيف ..

وأنا أشعر باشراقة من ذهني رغما عن أنفي ، فأرى ابا الطيب مع السيف جنبا الى جنب ، كما تمنى هو هذا ، واراده ، وحض عليه في كثير من الصور الشعرية ، وتمتع به ، خلال عشرة اعوام برفقة سيف الدولة الحمداني ، وحروبه مع الروم ، واكد عليه في اواخر ايامه كما رأينا في بيته الاسبق .

أشعر بالارتياح .. لقد نزعت عن اعماق نفسي تأثيرات الاخرين ممن ارخوا حياة ابي الطيب .. وأصبحت امام صورته النقية مع السيف وجها لوجه ، أتمعن بها بشفافية ناعمة ، وحدة روحية مرهقة .. ارغب بحميمية واندفاعية حيوية لو أنني أملك موهبة الفنان العظيمة ، وعبقريته الفذة كي أرسم صورة أبي الطيب والسيف مشهر بيده .. السيف الذي يبرق منه ضياء ، لا يضاهيه غير البريق الذي يومض من عينيه ..

وبريق عيني ابي الطيب يذكرني ببريق سيفه في قوله :

سله الركض بعد وهن بنجد

فتصدى للغيث اهل الحجاز ٣

كم هو مؤسف ومحزن ، لان العرب هجروا فن الرسم في تاريخهم الحضاري ، .. لو أنهم لم يفعلوا .. ترى اية كنوز فنية من صور عباقرة هذه الامة يكون لدينا ولدى متاحف العالم ؟ وكيف كانت سوف تبدو صورة ابي الطيب من بين كل هذه اللوحات ؟

أتنهد بارتياح ، أشعر بمتعة ، وود ، وأنا احملق في وجه ابي الطيب امامي ، سوف ارسم لكم صورة ابي الطيب من ذهني المتوقد بالكلمات ، سوف ارسم لكم صورة الصقر بالعبارات .

انتم ايها الرسامون العرب ، امسكوا ريشكم وقلوبكم ومشاعركم .. لاحقوا كل كلمة اتلفظ بها كي نكون معا ملامح وجه ابي الطيب ..

الوجه متطاول ، الجبين عال مسطح مع شعر غزير اسود فاحم ، وخطه بياض الشيب ، حاجبان متباعدان بينهما انقباض علامة التفكير العميق ، عيناه واسعتان سوداوان تكادان تبهران تحت الحاجبين .. تطلقان سهام نظراتهما العميقة النفاذة ، المتعالية ، وكأنها تثقب الاذهان والاشياء كي تصل الى كنهها ولبابها ، انف مستقيم أقنى ، مرتفع الارنبة ، صدغان بارزان على جانبي الجبين ، يظهران خلفهما جزءا من الاذنين ، تقبض في الوجنتين بينهما وبين الانف وشفتان رقيقتان مضمومتان بعزم وصلابة ، فكان ضامران ، وذقن دقيق مغطى بلحية كثيفة مستطيلة مهيبة وخطها الشيب .. يبرز من اسفلها جزء من عنق الشاعر النقي ، فيبدو كعنق النسر ، بلفتات جانبية مهيبة ، ولمحات تدل على عمق الذكاء وحدته ، لا يجد جليسه امامه فكاكا من وقع نظراته .. فاما ان يستكين اليها ، فتهدأ انفعالات نفسه ، ويصغي الى حديثه او مناقشاته ، او شعره مبهورا ، مأخوذا مسحورا ، ويصبح من اصدقائه ، واما ان تثور احاسيسه الخفية في أعماقه ، فيندفع بعنف ليصد هذه النظرات عنه ، يحمي نفسه من وقع اللمحات النارية .. ويصبح بذاك الفعل من اعدائه ..

لا ادري ان كنت نجحت في رسم صورة وجه ابي الطيب مع السيف التي املاها علي ذهني بالكلمات .. ونظراته المهيبة تسيطر علي ، فانصاع اليها وأستكين ، وتأخذني بايحاءاتها أخذ سيطرة واقتدار .

٢ - الصورة الثانية :

ابو الطيب وعلم الطباع ..

قال الرواة والمحدثون من ابناء عصر ابي الطيب عنه ما معناه :

- " ان كان المتنبي متكبرا متعاليا متعاظما متشامخا دوما ، معتدا بنفسه وشعره وعلمه واصله ، له ذي بدوي مميز ، " سار ذكره مسير الشمس والقمر ، و سافر كلامه في البدو والحضر ، وكادت الليالي تنشد شعره ، والايام تحفظه " .

وتكلم الافاضل في الوسطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن أبكار كلامه ونظمه ، وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه ، والنضح عنه والتعصب له وعليه وذلك أول دليل على وفور فضله ، وتقدم قدحه ، وتفرده عن اهل زمانه بملك رقاب القوافي ، ورق المعاني

(٤) .

المقربون من اصحابه امثال
ابي الفتح عثمان بن جني عالم اللغة المشهور، وعلي بن دينار الشاعر المعروف، وابن العميد الاديب والكاتب المترسل والعالم الفيلسوف والسياسي المحنك، وغيرهم قالوا ما معناه :
- " كان ابو الطيب معتد بنفسه وعلمه وشعره وفضله .."
وأعطوه الحق بهذا .. واضافوا الى صفاته قولهم :
- " انه كان عفيف النفس، ابي الطبع، كريم الاصل والفعل، ونسبوا اليه كل فضيلة في السلوك وفضلوه على أهل زمانه .."(٥).

أما أخصامه، واعداؤه، وشانئوه، فقد انتقصوا شخصيته، وهيئته، وسلوكه، وطريقة انشاده، وزيه، وحطوا من شأن شعره ورموه بالتعقيد، والالتواء والغثاثة، وازدروا شعره غاية الازدراء حتى قالوا :
- " انه لا ينطق الا بالهوى، ولا يتكلم الا الكلمة العوراء، ومعانيه كلها مسروقة، "واضافوا الى هذا أنه ادعى النبوة في بني عدى في بادية "سليمة"..وفيما بعد، وجد له جماعة المهلبي الوزير في بغداد، وفيهم الشاعر ابن الحجاج نسبا جديدا ،فقالوا
- " ان اباه كان يسقي الماء بالكوفة، واسمه عبادان .."(٦).

لقد شغلت شخصية ابي الطيب وحياته، وشعره جميع ادباء وشعراء القرن الرابع الهجري حتى قال عنه الاديب المغربي ابن رشيق القيرواني كلمته المشهورة :
" مالئ الدنيا، وشاغل الناس"
اذ لا يمكن لمن يحضر مجالس الادب في اي بلد من الديار الاسلامية خلال الارباع الثلاثة الاخيرة من القرن الرابع الهجري الا ويسمع فيه حديث ابي الطيب، ويجد الناس منقسمين فيه الى : " محب غال، وشانئ قال .." .. فلم يحصل لشاعر او مفكر في عصر من العصور الادبية العربية كما حصل لابي الطيب ابدا .. وهذه ميزة انفرد فيها وحده عن جميع شعراء وادباء العرب قاطبة حتى عصرنا هذا . .

وهي فيما ارى شهادات موثقة لديه من اصدقاه واعدائه على السواء..
بعد كل هذا، كيف يبدولنا ابو الطيب من زاوية علم الطباع ؟
مدرسة علم الطباع ذات منشأ فرنسي، قامت بتطبيق ما وصلت اليه على اشخاص كثيرين من القادة والساسة، والملوك، والشعراء، والفلاسفة والكتاب في التاريخ، صنفت في دراساتها بعد استقصاءات تاريخية علمية طويلة، كثيرة، قام بها العالمان "هيمانس" و " فريزما " المخلوقات البشرية، في ثمانية نماذج تبعا لتزاوج مقومات الطبع التي اعتبراها أساسية، وهي :
" الانفعالية، والفعالية ،والترجيع ثلاث. ثلاث، وعلى هذا الاساس كانت المقومات الاساسية للنماذج الطباعية عندها ثمانية هي :
١ - النموذج العصبي : وهو الانفعالي اللافعال، ذو الترجيع القريب،
٢ - النموذج العاطفي : وهو الانفعالي اللافعال، ذو الترجيع البعيد .
٣ - النموذج الغضبي : وهو الانفعالي الفعال، ذو الترجيع القريب .
٤ - النموذج الجموح : وهو الانفعالي الفعال، ذو الترجيع البعيد .
٥ - النموذج الدموي : وهو اللانفعالي الفعال، ذو الترجيع القريب .
٦ - النموذج اللمفاوي : وهو اللانفعالي الفعال، ذو الترجيع البعيد .
٧ - النموذج الهلامي، وهو اللانفعالي اللافعال، ذو الترجيع القريب
٨ - النموذج الخامل، وهو اللانفعالي اللافعال، ذو الترجيع البعيد (٧).

وصنفت هذه المدرسة ابا الطيب المتنبي مع نماذج الغضبي" كالشاعر الفرنسي " فيكتور هيجو" والروائي " أونوريه بلزاك وخطيب الثورة الفرنسية " ميرابو "، وغيرهم من شخصيات التاريخ ..
فماذا يعني هذا ؟
اذا كان علم الطباع في مدارسه الحالية علما ناشئا

كبقية العلوم الانسانية فيعصرنا فان أصحابه وعلماءه يحاولون ان يجدو - من خلال الدراسات ، والاستقراءات والاستقصاءات التي يجرونها - له قوانينا تقريبية ، كي يدفعوه ليصبح علما بكل معنى الكلمة ، فهم يعملون لكي يقتربوا من خلال هذا العلم من معرفة الفرد في عصوره المختلفة ، بحيث يرسمون له صورة غنية عن طبعه ورسم شخصيته ، على اساس المعلومات الدقيقة عن حياته ، من خلال تعرفهم على خطبه اونثره ، وادبه ، وسياسته ، وشعره ، وغير ذلك مما يتركه هذا الفرد من آثار ومؤثرات على مجتمعه ..وبهذا فان علم الطباع يمكن له ان يدرس شخصيات التاريخ بمنهجية موضوعية ، ويعدل من سيرتها التي قد يكون غالى فيها الاصدقاء والمحبون ، او هجنها الاعداء والكارهون ..

واستقراء الطبع الذي تتلمسه مدارس علم الطباع ، يبدأ بملاحظات منهجة ، شأنه شأن كل العلوم ، فيبدأ في الصور النفسية التي تشتمل على طرز فعل الفرد الذي يفصح فيها شخص ما عن نفسه خلال سلوكه في حياته ..

ولكي نبلغ هدفنا من هذا البحث عن ابي الطيب المتنبي ، نوجز ما تعنيه الانفعالية والفعالية ، والترجيع التي تبنى عليها الطباع الشخصية للافراد ،

الانفعالية : لنفترض ، ان شخصين متفاوتين في درجة الانفعالية شاهدا حادثة مؤثرة ما ، ولتكن حادثة " تدهور سيارة ركاب كبيرة ورأيا معا العديد من ركابها قتلى وجرحى ، والدماء تسيل هنا وهناك ، فلنراقب استجابات هذين الرجلين بدقة ، فاذا وجدنا الاول منهما قد اضطرب اضطرابا حادا عنيفا حتى كاد ان يفقد رشده من التأثر ، فأخذ يصيح من فرط الانفعال ، والجزع ، على ما يراه من عذاب الضحايا وتألمهم .. ويولول ، ويندب ، ويتفوه بعبارات الرثاء الحزينة ، وكأنه يشارك الضحايا آلامهم ومعاناتهم ،فيبكي ويلطم وجهه ويرتعد ، وتزوغ عيناه ، ويشرد فكره .. الخ .. في حين وجدنا الرجل الثاني ، لم يظهر عليه التأثر الا قليلا .. وبقي صامدا جلدا ، وكأنه لم ير ما يحزن ويثير مكامن النفس ،فيظل هادئا متماسكا ساكنا ، يتابع ما كان يقوم به من عمل ، وقد يشارك في اسعاف المصابين او يتابع الاهتمام بشؤونه الخاصة .. مع انطباع قليل يرتسم فوق ملامح وجهه ، فاذا سألنا الاول عن الحادثة واسباب وقوعها ، اختلط عليه الامر ، وخاطبنا بتوتر وتهيج ، وجسم لنا ما رآه مع تكرار ممل لعبارات التحسر ، والتأسف واللجلجة في اخراج العبارات ، وقد لانفهم منه شيئا ، اما الثاني ، فانه يجيبنا بهدوء ويصف لنا الحادثة باتزان ،ويشرح الاسباب بالتفصيل ، وكأن الحادثة واقعة طبيعية جدا ، ممكنة الحدوث في كل وقت ..

فنقول عن الرجل الاول انه " انفعالي .." وعن الرجل الثاني انه " غير انفعالي " والواقع الموضوعي ، انجميع الناس انفعاليين ، ولكنهم يتفاوتون في درجات الانفعالية الى حد بعيد ..

الفعالية : ان الناس يتفاوتون في حدة الفعل ، اوالعمل فلكل فرد درجة محددة من الفعالية ، فكلمتا النشيط والكسول صفتان شاملتان لكل كائن بشري ، تطلق احداهما على هذا الفرد او ذاك ، بدرجات متفاوتة ايضا ..

غير ان الفعالية بمعناها "الطباعي " لا تنطبق الا على الفرد الذي يعمل بتأثير استعدادات شخصية ثابتة في كيانه ومركباته ، ذاتها دون حض من جهة خارجية اما غير الفعال ، فهو يعمل مغلوبا على امره مكرها ، واذا قام بعمل ما فانه يشكو كثيرا ويتضجر ، ويتذمر .. فالفعال لديه الحاجة الداخلية الى الفعل ، وما الاحداث المحيطة به الا مناسبات وفرص لاندفاعه للفعل ، فاذا لم يجد الفعال الفعل الذي يشغله بحث عنه بجد ونشاط لا يعرف الكلل، او الشعور بالتعب ، او الحاجة للراحة ، [illegible] تعبت عضلاته . . فان [illegible] الراحة يعيد اليه

نشاطه وفاعليته ، الفعال حركته دائبة ، ونشاطه متدفق ، بينما غير الفعال حركاته بطيئة خاملة ، اذ اندفع للفعل خارت قواه بعد جهد قليل ، وشعر باعياء وانهيار في نفسه وعضلاته .. وهو يحتاج الى راحة طويلة حتى يستعيد قدراته على استمرار الفعل من جديد ..

الترجيع : لنفترض ، ان شخصين من الناس تلقيا انطباعا حادا عن حادثة معينة ، اساءت الى شخصيتهما بنفس القوة ، وأثرت فيها تأثيرا مباشرا ، فانفعل الشخص الاول ، واضطرب ، وتهيج... ثم عاد تدريجيا الى حالته الاولى من الاعتيادية والصفاء ، اما الشخص الثاني فقد اضطرب ،وتهيج ولكن ردود فعله كانت هادئة لم تظهر عليه ، وظل متماسك الجأش ، وان كان يردد بعض الكلمات بينه وبين نفسه بين حين وآخر .. كأن يقول : "بيفرجها الله .." ، او " سوف نرى وكل آت قريب " بحيث انه لم ينس الحادثة ابدا ، بل كانت تتفاعل في ساحة شعوره . . واعماق نفسه مدة طويلة تحضه على رد الاساءة بعنف حتى حانت له الفرصة .. فنقول عن الشخص الاول انه ذو ترجيع قريب " ونقول عن الشخص الثاني انه " ذو ترجيع بعيد " .

والواقع ان جميع الاسوياء من المخلوقات البشرية يتأثرون بالحوادث التي تمس شخصياتهم ، وترجع في نفوسهم ، وساحات مشاعرهم ، ولكن كل فرد يتفاوت عن الاخر بدرجة الترجيع ..

لقد تبين لاصحاب مدرسة الطباع ان ابا الطيب المتنبي - كما قلنا سابقا - من النموذج الغضبي ، وهو الانفعالي الفعال ذو الترجيع القريب .

فما هي صفات الغضبي .. . وملامحه الشخصية والنفسية ؟

الغضبي انفعالي ،وانفعاله يؤدي به الى العمل الدائب ، ويغذي فيه النشاط ويدفعه للدخول في حلبات الصراع الدائم، وهدفه تحقيق الانتصار دوما فهو لايكتفي بتلقي الضربات متوجعا ، محتجا ، او شاكيا ، بل يرد على الضربات باشد منها ، عندما تحين له الفرص ويشعر بعدها بالزهو والارتياح ..

وتبرز لدى الغضبي استعدادات لحب الظهور والابداع في المجادلات التي يميل اليها كالخطابة ونظم الشعر المميز ، وانشاده بطريقة خاصة تلفت النظر ، وفي كل الاعمال التي يقوم بها في مجالات الحياة الكثيرة .. تقود الغضبي العزارة والحماسة دوما ، وتتدفق قدراته العالية في الفصاحة ، وتركيب الالفاظ وغيرها كالسيل الجارف من نفسه ، وأعماقه ، ومن بين شفتيه ، وحركاته ..

وتبدو شخصية الغضبي متكاملة اذا غضضنا الطرف عن بعض الهنات الصغيرة التي تبدو منه احيانا في بعض الامور ، وغايتها حب الظهور ولفت الانتباه بغية الاندهاش ، واثارة انتباه من حوله .. وخاصة عند تدفق عواطفه الحماسية التي تغلبه وتسيطر عليه

والعواطف عند الغضبي حادة غنية بالنزوع الحركي والفاعلية ، يندفع الى فعل الامجاد ، وتحقيق المطامح .. وعندما يرد على اساءات الخصوم يكون رده عنيفا شديدا شرسا .. وتكون مظاهر ردوده مغلفة بالاحتقار واللامبالاة وهو ينتقل من فعل الى آخر ، ومن رد الى آخر ، ومن خصومة الى أخرى دون كلل او تعب ، او اهتمام بحمية ونشاط لا يعرف الملل .

والغضبي يعيش حياته الحاضرة بفاعلية ، ويهواها ، ويوجه كل اهتماماته لكي يترك حوله شهرة وصخبا ، وضجيجا ..

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم[8]

*

اذا شاء ان يلهو بلحية أحمق
اراه غباري ثم قال له الحق[9]

والغضبي يحب ان يجد الاثارة حوله ، سواء كان مصدرها الاصدقاء ام الاعداء لا يأبه بما يقال عنه ، يسير قدما دون وجل ، يحب المغامرة ، والترحال ، والانفاق والمجد ، والكرم ، والطمع ، والفخر . . وكل ما يمكن ان يثير الاستغراب ..

وسمات الغضبي تنم عن حيوية متدفقة ، وفاعلية ، فهو دائما الق الوجه منفتح القسمات

باسم الثغر ، متورد الخدين ، نابض بالحيوية والحركة ، صوته قوي جائش تنم نبراته عن سعادة ، وانبساط وفرح ، تتصاعد قوته وعنفوانه وتألقه على قدر تصاعد التحديات والانفعالات .. حاجات الغضبي الحيوية نشطة دائما ، فهو محب الطعام الجيد ، والنساء الجميلات والحياة المترفة ..

والغضبي يحب ابناء المجتمع ، ويعمل بكل قدراته لخدمتهم ورفع الحيف عنهم ، يملك دوافع قوية لبناء علاقات محبة ، وصداقة ، وتوادد مع الاخرين ، لا يستثني ، منهم الا الاولياء ، ولئام الطباع من الاوغاد والمنافقين والخونة ، والكذبة ، والمتبجحين .. يلتصق بأهله وقومه ، وذويه التصاقا حميميا ، وهو اكثر النماذج الانسانية التصاقا بقومه ، وامته ، ووطنه .. لا يتفوق عليه في هذه الظاهرة الا نموذج " الجموح " ..

والغضبي اكثر النماذج الانسانية اجتماعية ، واندفاعا للاسهام في قضايا الوطن العامة شجاع ، محنك ، يجد متعة في الدفاع عن ابناء مجتمعه ، فهو نموذج اجتماعي وطني ممتاز يميل الى الجرأة ، وخوض المعارك الحربية الباهرة ، مقدام مخلص ، يمكنه التلاؤم مع كل الظروف المحيطة ، بمرونة تنبع من جرأته وفاعليته ..

والغضبي عقله منفتح مستنير يحب التجديد والتطور المتصاعد ، والثورية ، منفعل مع الحياة يدخل في أغوار الاشياء ، فاذا كان شاعرا كان مبدعا مجددا في كل قصيدة ، وكل بيت ، وكل معنى ، وهدفه ادهاش ولفت الانتباه اليه ، واذا كان سياسيا ، كان خطيبا لسنا ، ومحدثا بارعا يملك قدرات عالية على استيعاب الناس على مختلف اوضاعهم الاجتماعية والثقافية .. واذا كان قائدا عسكريا ، كان انضباطيا ، امام القادة الاعلى منه ، ويعمل دون كلل لتكون وحدته متماسكة متفاهمة

يتابع مرؤوسيه دون كلل او تعب ، ويرعى شؤونهم بدقة متناهية ، يضع خططه العسكرية بذكاء ويخوضها بجرأة وشجاعة ونجاح ، واذا كان باحثا علميا ، فهو يبحث ،وينقب ولا يمل من التجارب وتكرارها حتى يصل الى النتائج الايجابية ..فاذا ما انتهى منها ، أخذ يبحث عن غيرها من جديد .. لا يعيق طريقه شيء عن اجراء او اتمام تجاربه ، اذا اضطر يجري تجاربه العلمية على نفسه ، ولو كان فيها موته .. وهكذا يكون الغضبي في كل حالة من حالاته ، وشأن من شؤونه ، وكل عمل من أعماله ..

" يتميز الغضبي باهتماماته الوطنية ، والتزامه بقضايا ابناء مجتمعه التزاما محضا يبعد عن الاغراض النفعية والمصلحية .. ونجد عند بعض نماذج الغضبيين اهتمامات سياسية عارمة .. لانهم يملكون القدرة على تجميع الناس حولهم ، والقوة على اقناعهم ببلاغة اللفظ ، ودقائق الحجيج ، وجرأة الفعل ، ونتائج الجهد .. يملكون القدرة ايضا للوصول الى الاهداف التي يؤمنون بها .. ويتغلبون على كل الظروف المحيطة بهم وتذليل كافة الصعاب التي تعترضهم بصبر وجلد وفاعلية عجيبة .. وهم في غالب الاحوال متفائلون واثقون بالمستقبل ، وبنتائج اعمالهم .."(١٠)

وقد تبلغ الانفعالية عند الغضبيين الى حد الغلو ،والتباهي بغاية استلفات نظر الناس ، واثارتهم ، وخاصة عند بداية حياتهم ، وفي سن مبكرة ، ومن هذا القبيل قول ابي الطيب في اول تفتحه للحياة ونظم الشعر :

أي محل ارتقي
اي عظيم اتقي
وكل ما خلق الله
وما لم يخلق
محتقر في همتي
كشعرة في مفرقي (١١)

وقوله يمدح شجاع بن محمد بن اوس الاذدي وسنه خمسة عشر عاما :

لم يخلق الرحمن مثل محمد
احدا وظني انه لا يخلق(١٢)

ومحمد في البيت هو ابو الممدوح:
وقوله يمدح محمد بن زريق الطرسوسي وهو في نفس السن :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه
لما أتى الظلمات صرن شموسا
او كان صادف راس عازر سيفه
في يوم معركة لأعيا عيسى

او كان لج البحر مثل يمينه
ما انشق حتى جاز فيه موسى
(١٣)

ومن هذا قوله يتغزل من نفس القصيدة :
ان كنت ظاعنة فان مدامعي
تكفي مزادكم وتروي العيسا

وقوله يمدح سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي /:
وضاقت الارض حتى كان هاربهم
اذا رأى غير شيء ظنه رجلا
(١٤)

وقوله يمدح علي بن صالح الكاتب في دمشق :
سله الركض بعد وهن بنجد
فتصدى للغيث أهل الحجاز
(١٥)

ويعني في هذا البيت :
- " عندما ركضت الخيل بعد وهن وكد وتعب ونحن بنجد ، خرج السيف من الغمد فرأى اهل الحجاز بريقه ، فظنوه برقا ، فارتقبوا المطر .."
والمسافة بين نجد والحجاز قد تزيد علىمائتي كيلو مترا ..

ولم يتخل ابو الطيب عن نزعة الغلو هذه حتى عندما اكتمل نضجه واسن ، وازداد علما في اللغة ،والشعر .. ولكن غلوه اكتسب نزعة فنية خاصة ، ونكهة فريدة عبرت عن شخصيته الغضبية تمام التعبير ..
قال يمدح سيف الدولة :
ألقت اليك دماء الروم طاعتها
فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم
(١٦)

وقوله يمدحه ايضا :
تمر بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
الى قول قوم انت بالغيب عالم
(١٧)

ومثل هذه المبالغات كثيرة في أشعار ابي الطيب ، وامثاله من الشعراء الغضبيين كفيكتور هوجو ، ومن الخطباء الساسة امثال ميرابو خطيب الثورة الفرنسية المشهور ..

٣ - الصورة الثالثة :
سمات ابي الطيب ..

يحق لنا بعد كل هذا العرض الموضوعي ان نتعرف على سمات ابي الطيب ، وبعض مركباته الشخصية من خلال ذكر بعض الاحداث التي مرت به من حياته الحافلة بالاثارة ، و ردود فعله عليها كي نصل الى فهم محدد لمسالكه التي تميزت بالعنفوان دائما ..

الاولى : يحدثنا الرواة ان ابا الطيب رحل الىمدينة الرملة في فلسطين فيالعام ٣٣٥ هـ وفي طريقه تعرض للاغتيال من قبل بعض المنتسبين الى البيتالعلوي، في قرية على الطريق تدعى " كفرعاقب المجاورة لمدينة " طبرية " وجاءه من يعلمه بالامر ، وينذره بالخطر الذي سوف يتعرض له .. فلم يأبه بالامر ،اويخاف منه ، واصر ان يستمر في رحلته وحيدا ، فعبر " كفر عاقب " و " بيسان " و " الخليل " ووصل " الرملة " ونزل على اميرها الشاب ابي محمد الحسن بن عبد الله ، وكان فتى كريما في العشرين من عمره ، مولعا بالشعر والشعراء ، والادب .. والادباء ، والعلم والعلماء ،، لذلك فقد تلقى ابا الطيب تلقيا حسنا ، وابتهجبقدومه اليهكثيرا مما دفع الارتياح والتوثب الى نفس ابي الطيب ، وهو يشعر انه امام فتى متواضع اصيل نبيل .. أنزله منزلة ودية محببة من نفسه ، ومال اليه ميلا خاصا .. ولم يتعرض لذكر حادثة التخطيط لاغتياله في " كفر عاقب " الا بعد اشهر من وجوده في " الرملة " .. وعندما ذكر الحادثة وهو يمدح ابا القاسم طاهر بنالحسين العلوي ، عرض لها بدون مبالات وبنوعمن التباهي ليدلل على شخصه وطبعه ، قال :
أتاني وعيد الادعياء وانهم
أعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدموا في جدهم لحذرتهم
فهل في وحدي قولهم غير كاذب
الي لعمري قصد كل عجيبة
كأني عجيب في عيون العجائب
بأي بلاد لم أجر ذوائبي
واي مكان لم تطأه ركائبي
(١٨)

ويتحدث الرواة فيقولون :
- " ان ابا الطيب كان يحدث في مجلس الحسين بن عبيدالله في الرملة ، ويروي - بناء على طلب الامير - حكايا مثيرة غريبة عن مشاهداته في الكوفة اثناء مهاجمة القرامطة للمدينة في الاعوام ٣١٤- ٣١٥ - ٣١٦ هـ ، ويستعرض في وصف المذابح ببلاغته المعهودة وتصويره المثير ، حتى كان يخيف من في المجلس ، ويدعهم مبهورين محبوسي الانفاس .. وكان منظرهم وهم يلاحقون شفتيه يشرح صدره ويبهجه بينما يظل هو ثابت الجأش هادئ النفس والعبارة ، وكأن ذكريات الاحداث الدامية الواقعية لا تثير في اعماقه اي انفعال او تأثر ..

الثانية ، وتحدث الرواة :
والكتاب باسهاب عن اول لقاء له بسيف الدولة ، وعن القصيدة الاولى التي مدحه فيها امامه مباشرة ، فقالوا ما معناه :
- " ان ابا الطيب في ميمته الاولى الذي مدحه فيها في انطاكيه في العام ٣٣٦ هـ اراد بها ان تكون قصيدة أبهة مميزة ، تضيع لب سيف الدولة الشاعر المتذوق ، والاديب الفارس ، وألباب من حوله من علماء اللغة والشعر والشعراء والفقهاء والفلاسفة ، والقادة .. ارادها مثيرة ، مدهشة ، اراد بها ان يهاجم الجميع بقوة الصدمة الاولى - حسب تعبير العسكريين - كي يثبت اقدامه وعلمه وشاعريته عند الامير الحمداني ، وحاشية الامير ، وامام الناس جميعا ، كي يبرهن لهم انه سيل عرم امام جداولهم ، يجب ان يحسبوا له الف حساب ، ويعترفوا به ، وانه شاعر عظيم متميز في علمه ، وشخصه على الجميع ، وانه خليق بالعناية والتقدير " (١٩)

واعتبر علماء الشعر واللغة منذ عصر ابي الطيب حتى هذا اليوم ، ان قصيدته الميمية ، ومطلعها المثير :
وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه
بأن تسعدا والدمع اشفاه ساجمة (٢٠)..
كانت قصيدته فخفخة ، فخمة ، مفخرة ، هدف فيها ابو الطيب الى اثارة الادهاش وشد الانتباه ، .. والاهتمام والاستغراق في التعجب ، وهذا ما حدث فعلا .. وما كان يتوقعه فعلا .. بهذه الثقة العارمة بالنفس ، والاعتداد بالذات ، والقناعة بالموقف .. وبالرغم مما تلقاه مسبقا وقبل انشاد القصيدة امام الامير في السرادق الكبير.. فقد بهر الامير سيف الدولة في انطاكية .. وبهر الحاشية المثقفة فبهتوا وتخدروا .. ولما استفاقوا بعد حين ، وادركوا الخطر المحدق بهم بوجود ابي الطيب بين حاشية الامير مستعليا قويا ، قرروا اسقاطه بالتصدي له سلفا ، كي يضعوه في مكانه اللائق ، بين الخاضعين ، والخانعين لزعيم عشيرة الادباء ، والشعراء والعلماء في مجلس سيف الدولة ، الفتى المدلل ، والشاعر الفارس ابن عم الامير " ابي فراس " الحارث بن سعيد بن حمدان " ومساعده المطواع العالم الفذ " ابن خالويه " (٢١) ، كي يصبح واحدا من امثال الشعراء الاخرين ، كالوأواء الدمشقي والنامي ، والزاهي ، وكشاجم وغيرهم .(٢٢).
لكن ابا الطيب خيب ظن الجميع ، لانه كان يعرف نفسه جيدا ويدرك ما هو مقدم عليه ، ويرى نتائج انتصاره سلفا ، لانه يضع اهدافه دائما نصب عينيه .. وكان يهدف ان يصبح شاعر سيف الدولة الاثير الوحيد .. بل شاعر الديار الاسلامية كلها بعربها وفرسها ، واكرادها ، وتركها ، وهنودها .. ولم يصغ لنصح "ابي العشائر الحمداني "(٢٣) امير انطاكية .. وقد رثى له وهو يقدم بهذا العنفوان كي يقف في مجلس سيف الدولة .. وقد تنبأ له بالسقوط ، ان لم يأذن له امير عشيرة الشعراء والادباء والعلماء بالدخول ..

تقدم ابو الطيب مقتحما مجلس الامير الحمداني بهذه الروح الوثابة ، والنظرات المتعالية ، ونفحة النضارة تضيء بوجهه وتؤلق ابتسامته .. وجلس على كرسي عال في مكان بارز من السرادق الكبير ، وعيون الالاف ترمقه برثاء.. تلفت حوله يتعاظم ، وتأنق وتفاخر كعادته .. وبدت عليه جرأة خارقة للعادة .. وانشد قصيدته الاولى في مدح سيف الدولة الحمداني ..

وفيما بعد .. شغل مطلع القصيدة الميمية وحده ، يلـه القصيدة محافل الادب كلها من مجلس سيف الدولة الى مجالس حلب وشمال الشام ، الى مجالس مصر والمغرب العربي وبغداد وخراسان.

وكان هذا المطلع الغريب ، وما فيه من صنعة ورسم بلاغي متقن ، مثارا لجدل عميم ، وسببا لمعارك ادبية طويلة بين العلماء والدارسين .. وبدأت أول ما بدأت بمعركة الشاعر الاولى مع عالم حاشية سيف الدولة الاثير لدى الحمدانيين ابن خالويه ، وانتهت بانتصار ابي الطيب العالم والشاعر عليه انتصارا كاسحا حاسما ، ترك خلفه زيولا طويلة من العداء ، دامت حتى انتهاء حياة الرجلين .

وكان صد ابي الطيب لابن خالويه عنيفا قارصا وهو يرد عليه بلهجة احتقار متعالية امام كل من في مجلس سيف الدولة قائلا:

- " مالك وللعربية .. فانك خوزي بن خوزي .." (٢٤)

الثالثة : عندما عاد ابو الطيب من " شيراز" متجها نحو العراق عام ٣٥٤ هـ قبل مقتله بشهر واحد، عبر في طريقه بمدينة " واسط "، والتقى فيها بالاديب ابي نصر الجيلي(٢٥) .. وقد علم هذا بالتخطيط لقتله من قبل فاتك بن ابي جهل الاسدي (٢٦) ، فحذره ابو النصر ، وطلب منه الاحتراز ، وان يتدبر الامر لكي تسير برفقته جماعة من المقاتلين يحرسونه. . فرفض ابو الطيب رفضا قاطعا وأبيا قائلا له :

- " انني لا ارضى ان يتحدث الناس بأنني سرت في خفارة احد غير سيفي ولما الح ابو نصر عليه ، اجابه اجابة نابعة من طبعه ، فقال له بعباراته التاريخية المعروفة :

- " امن عبيد العصى تخاف علي يا ابا نصر ؟ والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات ، وبنو اسد معطشون لخمس ، وقد نظروا الى الماء كبطون الحياة ، ما جسر لهم خف ولا ظلف ان يرده .. معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين .." (٢٧)

هذه امثلة واقعية حية من سلوك ابي الطيب سقتها كي تدلنا عليه وتعطينا رؤية موضوعية عن جوانب شخصيته ، ولو اننا تتبعنا بالدراسة حياة ابي الطيب كلها ، منذ قال اول بيت من الشعر وحتى وفاته ، ومواقفه من الحياة والوجود .. لرأينا بما لا يقبل الجدل انها تنم عنه ، وعن فاعليته المتجددة وتعاليه وتحديه الدائم لما كان يعترضه من ظروف قاسية وكيف كان يتجاوزها بشجاعة لا نجدها الا في شخصيات الغضبيين كما حددها علم الطباع .. فاعلية متنامية متجددة اثارة .. وادهاش ، لا يعرف الكلل ولا الونى والراحة ، حيوية متدفقة في المنهج والاسلوب ، وتحد دائم للمصاعب والمعيقات .

وكما ان حياة ابي الطيب كانت حافلة بالتنامي والتصاعد والتفتح ، فانها حافلة بالرموز، والاسرار .. ونرجو ان يتاح للباحثين العرب ان يكشفوا غوامض حياة شاعرهم الاثير في مستقبل الايام ، ويضعونه في مكانه اللائق من التاريخ ، اي ان يلحقوه بنسبه الهاشمي ..

" مما يؤسف له ان جميع نماذج الغضبيين ، والجموحين في العالم يموتون قتلا بسبب مواقفهم واعمالهم العظيمة .. التي تهدف بالدرجة الاولى خدمة امتهم ، ووطنهم .. وتطوير افكار امتهم ورفعة شأن وطنهم .."(٢٨)

ابراهيم ونوس

الهوامش :

١ - الديوان بشرح ابي البقاء العكبري جزء ٤ ص ١٥٩

٢ - المرجع السابق جزء ١ ص ١٨٨

٣ - المرجع السابق جزء ٢ ص ١٧٧

٤ - يتيمة الدهر للثعالبي جزء١ ص ١٣١

٥ - يتيمة الدهر للثعالبي جزء١ ص ١٣٤

٦ - يتيمة الدهر للثعالبي جزء١ ص ١٤١

٧ - مأخوذ من كتاب علم الطباع طبع جامعة دمشق عام ١٩٦٩

٨ – الديوان جزء ٣ ص ٣٦٧
٩ – الديوان جزء ٢ ص ٣١٤
١٠ – مأخوذة من كتاب علم الطباع طبع جامعة دمشق عام ١٩٦٩
١١ – الديوان جزء ٢ ص ٣٤١
١٢ – الديوان جزء ٢ ص ٣٣٩
١٣ – الديوان جزء ٢ ص ١٩٨
١٤ – الديوان جزء ٣ ص ١٦٨
١٥ – الديوان جزء ٢ ص ١٧٧
١٦ – الديوان جزء ٤ ص ٢٦
١٧ – الديوان جزء ٣ ص ٣٨٧
والابيات في القصيدة ذات المطلع :
على قدر اهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
هي
وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
الى قول قوم انت بالغيب عالم
١٨ – الديوان جزء ١ ص ١٥١
١٩ – انظر كتاب مع المتنبي لطه حسين ص ١٨٩ وما بعدها .
٢٠ – الديوان جزء ٣ ص ٣٢٥
٢١ – ابن خالويه : هو ابو عبد الله الحسين بن احمد ، عالم لغة معروف ، كان مربيا ومعلما لابناء الحمدانيين ، ومن مشاهير اللغة في بلاط سيف الدولة توفي عام ٣٧٠ هـ
٢٢ – الوأواء الدمشقي ، هو ابو الفرج محمد بن احمد الغساني الدمشقي شاعر له ديوان مطبوع ، توفي عام ٣٦٠ هـ ، والناهي هو علي بن اسحق ،كان شاعرا ماجنا، مدح سيف الدولة توفي عام ٣٥٢ هـ كشاجم هو ابو الفتح محمود بن محمد شاعر اديب توفي في العام ٣٥٠ هـ
٢٣ – ابو العشائر الحمداني ابن عم سيف الدولة ووالي انطاكية في عهده مدحه ابو الطيب
٢٤ – الديوان جزء ٣ ص ٣٦٧
٢٥ – ابونصر الجبلي ، اديب متذوق نزل ابو الطيب ضيفا عليه عند عودته من شيراز .
٢٦ – هو خال ضبة القرمطي ، الذي هجاه ابو الطيب في قصيدة مطلعها ما أنصف القوم ضبة
٢٧ – راجع كتاب " ابو الطيب المتنبي " ل . د . ر بلاشير ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني مطبوعات وزارة الثقافة ص ٣٤٦ – ٣٤٧
٢٨ – مأخوذة من كتاب علم الطباع طبع جامعة دمشق عام ١٩٦٩

ابراهيم ونوس *

اذا تزوجت يا (هرماس) بامرأة بخيلة حفظت لي مالي ، واذا تزوجت بطروبة اغنتني واذا تزوجت بعالمة علمتني ، واذا انتخبت عاقلة لم تغضب علي ، واذا اقترنت بغضوبة تعودت معها الصبر ، واذا تزوجت بمغناج رغبت في رضاي ، واذا احببت اديبة لطيفة ربما تلطفت بي ورقت لحالي ثم احبتني . ولكن اجبني يا (هرماس) ماذا افعل بالمرأة التقية التي تخدع الله وتخدع نفسها .

(لابرويه ر)

* * *

علموا الفتاة ان تكون معتدلة في القراءة وان تفضل عليها الاشغال اليدوية . القراءة تضر الفتاة اكثر مما تنفعها

(مدام دومنتون)

المرأة

في الحكاية الشعبية

حسان الراوي

مدخل :

الحكاية الشعبية انتاج انساني حي ينبض بمشاعر بني الانسان واحاسيسهم وسجل احلامهم وهواجسهم ونظرتهم الى الكون والحياة .

ودارس الحكاية في امة يستطيع ان يقف على خصائص شخصية هذه الامة ومقوماتها في التاريخ الذي لم تطله يد التشويه او العبث او الفرضية ، وقد شرعت الامم في القرن الماضي تهتم بجمع هذا الجزء من التراث من عظامه الحية انقاذا له من الانقراض وتعنى بترتيبه ودراسته .

ومنذ سنوات خلت قمت بجمع بعض الحكايات عن بلدان عربية شتى في المشرق والمغرب وقد تحققت ميدانيا من رحلة الحكاية عبر البحار والسهوب والصحارى آخذة في كل بلد تحكي فيه طابعه ومذاقه وذوقه .

وعلى سبيل المثال نجد حكاية (ساندريلا) ارتحلت من اوروبا الى الشرق العربي في سوريا تعرف باسم (فاطمة صفافة البوابيج) وفي المملكة المغربية عرفت (سلوى) والمضمون واحد والمغزى واحد وما اختلف هو الاسلوب في القصص وبعض جزئيات الحدث وفق البلد الذي حكيت فيه

وموجز الحكاية : فتاة يتيمة تقع تحت رحمة امرأة اب قاسية اذاقتها الوان الهوان لكن القدر أنصفها فتزوجت ثريا وعاشت في هناءة ورغد وسعادة .

كذلك حكاية (عصفوروجرادة) تحكي بطريقتين مختلفتين سردا واحداثا نقصا وزيادة اضافة وحذفا والمثل السائد في الشرق العربي (سورية والعراق) يلخص هذه الحكاية وهو " الله يبليك يا جرادة مثل ما بليت عصفور " و لا يزال يتردد على الالسنه ولا اظنه ينسى ابدا فهو موقف يترد في كل زمان ومكان .

هذه الحكاية شملت مضامين متعددة ومواقف متباينة اتسعت اووسعت الحياة بتذوقها تصورت تطلعات الانسان وبخاصة البسيط والامه وافراحه وأكدت في خواتيمها على انتصار الحق والخير ورفض الباطل والشر فساهمت بذلك في ارساء القيم الانسانية الخالدة بطريقة شيقة ميسورة بعيدة في معظم الاحيان عن المباشرة والقسرية في التوجيه .

وشخوص الحكاية نمطية غالبا قطباها الرجل والمرأة .

مواقف :

من الحكاية الشعبية التي تصور جوانب من حياة المرأة حكاية (قلب الام) فهي تؤكد ان غريزة

الامومة تنتصر على كل الوان القهر والاذلال التي لاقتها الام من اولادها فتنسى كل ذلك حين تجدهم في حاجة اليها فتأخذ بأيديهم دون كلمة لوم او عتب لقد انتصر عنصر الفطرة عنصر الخير ، دافع الامومة المعطاة ابدا في قلبها فاحتضنت الجميع وقدمت لهم عونها ومساعدتها دون ان تنتظر جزاءا او شكرا انها الام الطيبة التي تمنح بلا مقابل .

اما حكاية (وفاء المرأة) فتعطينا للوهلة الاولى صورة سلبية للمرأة التي تعاهد زوجها على الوفاء في حياته ومماته ، ولكن ما ان تحين الفرصة وتظن ان زوجها قد فارق الحياة حتى تبدأ تسعى في اقتناص زوج آخر شاب ووسيم وتجعل شفاءه كسر جمجمة زوجها المسجى .

لعلنا نلمس في الحكاية ادانة للمرأة لنقضها العهد والسعي وراء تحقيق الذات ، وتحقيق الذات عند المرأة والرجل على السواء لا يكون الا باجتماعهما تماما كالماء فان احد عنصريه لا يكون ماء ابدا وذلك منطق الحياة والفطرة والوجود .

قلنا قد يتبادر الى الذهن ان الحكاية ادانة للمرأة ، انه ادانة نعم وخطأ نعم .. لكنه خطأ يؤدي الى الصواب ان عرض النموذج السلبي هو توجيه الى النموذج الايجابي ان القدر يقابله الوفاء وذلك ما تهدف اليه الحكاية .

من يسمع الحكاية ، او يقرأوها يرفض هذا السلوك وفي الرفض الموقف الايجابي الذي تقصده الحكاية وبذلك تحقق غرضها الذي سعت اليه .

وفي حكاية " الضرة " نموذج صارخ للغيرة تعدى منطق الاشياء ، انها امرأة تحب زوجها وزوجها يحبها لكنه مل تلك العشرة الصامتة انها خرساء لا تتكلم تمثال جميل رائع لا ينطق فقرر الزواج ، وفي ليلة الزفاف تحدث المفاجأة تسمع ضرتها تعيب طبخها فتغلي نار الغضب في صدرها فتنطلق لسانها فتتكلم لقد حلت المشكلة وعاد اليها زوجها الحبيب لها وحدها .

ان الحكاية تصوير صادق ، امين لذلك الاحساس المزروع في قلب المرأة والذي لا تساوم عليه ابدا ، ان الزوج لها وحدها ووحدها فقط ودون غيرها .

وفي حكاية " الزوجة الذكية والزوجة الغبية " نموذجان للصواب والخطأ في سلوك المرأة - الزوج، رجلان يتراهنان على زوجيهما كل يقول : ان زوجه ذكية وتحسن التصرف ، وينفذ الرهان وتتصرف كل زوج وفق قدراتها فتحسن واحدة ، وتسيء اخرى ويكسب احد الرجلين الرهان انها الحياة خطأ وصواب ، سلوك سليم وآخر خاطيء ومن الخطأ يولد الصواب .

ان هذه الحكاية ضرب من الحكايات التعليمية فاي امرأة يعرض عليها النموذجان تفضل النموذج الصحيح للمرأة الذكية وتشيد بحسن تصرفها فقد استطاعت ان تثبت لزوجها انها جديرة بثقته وتقديره وحبه .

نموذجان للسلوك يوضعان بين يدي المرأة عليها ان تختار هذا ما تقوله وتوصي به .

نصوص - الحكاية الاولى :

قلب الام :

أرادت ام ان تزوج اولادها الثلاثة فخطبت للولد الاول فلما اصبح من ليلة زفافه جاءته بدجاجة مشوية وحين همت بالخروج سمعت عروسه تقول له أهذه امك ؟ قال : نعم ، قالت لا أرغب برؤيتها ثانية .

انصرفت الام حزينة مكسورة الخاطر ثم زوجت ابنها الثاني وجاءته صباح عرسه بدجاجة مشوية ايضا ، فسألت العروس ام عريسها : أأنت امه ؟ قالت الام ؟ نعم ، قالت لها العروس حين خروج زوجها لا اريد أن أراك ثانية هنا . وخرجت الام حزينة مكسورة الخاطر ولم تعد ثم زوجت ابنها الثالث وهو اصغر اخوته ، وجاءته بدجاجة مشوية فقالت لها العروس : انت امه : قالت نعم ، قالت لها لا اريد ان اراك ثانية ، خرجت الام باكية وحامت في البركة فاشتد بها البرد والعطش والجوع فأوت الى ظل شجرة تستريح ومر بها غلام وسألها ما بك يا اماه ، فقالت لقد طردني اولادي ، فهمت على وجهي ولا زاد معي ولا مال فقال الغلام : وانا لا اهل لي ، ولا

بيت ، جلس الغلام معها حتى استراح
ثم قال :
يا اماه سأذهب التمس لنا طعاما
وشرابا واعود قالت الام : افعل
هداك الله .
انطلق الغلام بين الوديان
والجبال فلما عاد مساء يحمل
سمكة وطلب من الام ان تصنع الطعام
ريثما يأتي بالماء من النبع
القريب وحين عاد سألها عن
الطعام فاخبرته انها عندما
انتهت من تنظيف السمكة ذهبت لجمع
الحطب اختطفتها قطة وهربت .

وفي اليوم التالي جاءها
بسمكة ثانية وذهب فلما رجع
سألها عن الطعام فأخبرته ، ان
القطة اختطفتها وفي اليوم الثالث
جاءها بسمكة ثالثة وذهب فلما
انتهت من تنظيف السمكة وجلست
تحت الشجرة حيث ترى السمكة وترقب
ما سيحدث فأبصرت القطة ولا تدري
من أين خرجت اندفعت نحو السمكة
واختطفتها وهربت فتبعتها الام
العجوز حتى دخلت القطة مغارة فد
خلت خلفها فوجدت السمكات الثلاث
وكومة من الذهب فأخذت الذهب
والسمكة الثالثة وعادت ادراجها .
فلما جاء الغلام وجد الطعام
جاهزا فأكلا طعامهما ولم تخبره
بما رأت وبعد ان فرغ من طعامه
قالت له اري انمكاننا هذا ليس
بدار اقامة قال الغلام : اين
نذهب ولا مال لنا ولا بيت نأوي اليه
ولا عمل نقوم به ونكسب عيشنا منه
قالت اذهب صباحا واستأجر لنا
دارا وسأعطيك في الغداة ما يكفي
لذلك . سكت الغلام على مضض فلما
نام الغلام اخرجت الذهب من المخبأ
وفي الصباح أعطته بعضه فاستأجر
دارا وأثثها ثم عاد وذهبا معا .
سكنت الام مع الغلام في دار
جديدة وفتحت للغلام دكانا يبيع
ويشتري وبنت دارا كبيرة وجاءت
بالخدم والحشم وأنفقت الكثير
من المال في سبيل الله للفقراء
والمساكين .
وذات يوم كانت جالسة الى
نافذة غرفتها تتأمل القادمين
والرائحين فأبصرت ابنها البكر
ثيابه رثة وشعره اشعث اغبر حافي
القدمين فنادت الخادم وطلبت منه
ان يحضر ذلك الفقير فلما احضر
سألته أعرفتني ؟ قال لا ، قالت
انا أمك ، فانكب على قدميها
يبكي ويعتذر فأمرت الخادم ، ان
يدخله الحمام ويلبسه ثيابا جديدة
نظيفة فلما انتهوا من ذلك سألته
عن حاله فقص عليها ما جرى له ،
وانه افتقر بعد غنى فتركته
زوجته ، فاعطته مالا يعمل فيه
وزوجته واسكنته بيتا يخصه وزوجته
ثم رأت ابنها الثاني في حالة
زرية فأحضرته وعلمت حاله وفقره
وخيانة امرأته فأعطته مالا ودارا
وزوجة .
ثم شاهدت ابنها الاصغر رث
الثياب بادي الاكتئاب فأمرت
خدمها فحملوه الى القصر وغسلوه
والبسوه واستمعت الى قصته وتسلط
زوجته واسرافها ثم طردها له ،
فزوجته فتاة اختارتها له ذات حسب
وجاه وجمال ومال واعطته مالا
يعمل به ودارا يسكنها وبقيت في
في دارها مع الغلام اليتيم سعيدة
هانئة وجزى الله السامعين خيرا .

الحكاية الثانية :
" وفاء المرأة "
يحكى ان تاجرا كان يحب
زوجته حبا جما ملك عليه قلبه
وعقله لكنه رغم ذلك لم يكن سعيد
فهو يخشى ان مات ان تكون لاحد
غيره .
وذات يوم باح لزوجته
بهواجسه التي نغصت حياته فهدأت
روعه واقسمت له أنها لن تسلم
قلبها لأحد سواه لافي حياته و لا
بعد مماته ان قدر الله وعاشت
بعده .
اطمأن قلب التاجر الثري العجوز
وعاد البشر والسرور الى نفسه ،
وكاد ان ينسى الموضوع كله لولا
انه ضاق به صدره ليلة فخرج من
القطر وحده يطوف في دروب المدينة
فقادته قدماه الى خلاء ينتهي الى
مقبرة وكان القمر بدرا ، منيرا ،
والسماء صافية فرأى امرأة جالسة
امام قبر لم يجف ترابه بعد
ممسكة مروحة تحركها يمنة ويسرة
تجفف بها التراب الندي .
عجب التاجر منها فتقدم فسألها :
ما تفعلين يا امرأة هنا في هذا
الليل وفي هذه المقبرة ؟ لجم
الخوف لسان المرأة وهي تنظر اليه
مرتاعة فقال بهدوء روعها :لابأس

عليك يا امرأة ما انا الا عابر سبيل دفعه الفضول لسؤالك ، فلما اطمأنت قالت ان صاحب هذا القبر زوجي وقد مات قبل شهور قلائل، وانا آتي كل يوم ارش على قبره الماء وقد كنت قد اقسمت له الا اتزوج حتى يجف تراب قبره وهـا انذا أبر بقسمي فقد خطبت الى رجل وسأتزوج غدا لذلك اريد ان يجف التراب وفاء لزوجي الراحل قبل طلوع الشمس .

وقف التاجر مذهولا ينظر اليها وهي تحرك مروحتها بهمة وعزيمة ولما انتهت من تجفيف القبر قالت له : هلتقبل مني هذه المروحة هدية لايناسك اياي ، وجلوسك الى جانبي كل هذا الوقت أخذ المروحة وانصرف يحدث نفسه ، لقد احبها واخلص لها حبها ولما مات جلست الى قبره لا لتبكيه ولا للتذكر عهده وحبه بل لتخلع عن نفسها يمين الوفاء الذي اقسمته له .. ولا زال يحدث نفسه حتى ألقى نفسه على باب داره .

ارتابت زوجته حين رأت المروحة في يده ورجوعه ضحى فقال لها : لقد اهديت الي من امرأة وفية لزوجها وانا بدوري اهديك اياها ربما تحتاجين اليها يوما.

ثم قص عليها خبر تلك المرأة فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها ولامته على شكوكه وقالت النساء لسن على شاكلة واحدة كما ان الرجال ليسوا على شاكلة واحدة .

ثم أكدت له وفاءها واخلاصها .

مرت الايام ورغب يوما ان يختبر زوجته ووفاءها فتظاهر بالمرض ولزم الفراش اياما وارسل الطبيب يخبر زوجته ، ان زوجها ساءت حالته وهو يرغب في التحدث اليها ، فلما جاءت ذكرها بعهدها وقسمها فقالت : لم هذا اليأس والتشائم انا زوجتك الوفية المخلصة لك وحدك في حياتك وبعد مماتك فقال : انك شابة وجميلة وسترثين عني مالي واملاكي فقالت كلها لا تساوي ساعة بقربك وكلمة منك ، اطال الله بقاءك وعافاك ،

وفي المساء ارسل صديقه الطبيب لينقل الى زوجته خبر وفاته واوصاه ان يكتم الامر الى حين فلما اخبرها الطبيب ارتاحت

وارادت ان تلقي عليه النظرة الاحيرة فنصحها الطبيب الاتفعل .

فأمرت الخادم ان يسجيه ويغلق الباب ثم خلت الى نفسها تبكيه وتندب حظها وشبابها ،وبينما هي على تلك الحال دخلت عليها الخادمة تخبرها ان فتى من اهل سيدهاحضر من بلد بعيد فلما سمع بوفاته اغمى عليه ولا يزال الى الان راقد امام باب القصر فأمرت الخادمة ان تتولى امره ورجعت الى النحيب والندب .

فلمامر الهزيع الاول من الليل دخلت عليها الخادمة مذعورة مرتاعة

وهي تقول ان ضيفنا يعاني ألماً شديداوالطبيب قد رحل وانا حرت في امره ، وما اراه الا هالكااذا نحن اغفلنا شأنه فأشفقت عليه زوجة التاجر وقررت الاهتمام بامره احتراما لزوجها الراحل واكراما له فقامت تتحامل على نفسها حتى دخلت عليه فوجدته ملقى على السرير يتوجع فاقتربت منه ونظرت الى وجهه فراعها جماله وشبابه ونضارته وخيل اليها ان انينه المنبعث في جوف الليل البهيم آهة حزين ساحر فعكفت عليه تعالجه ولم تدع وسيلة من الوسائل الا استخدمتها حتى استفاق ونظر الى طبيبته الجاثية امام سريره نظرة شكر وامتنان .

وانست به وانس بها وشرع يقص عليها حياته فعرفت منه مسقط رأسه وصلته بزوجها وانه فتى لا زوج له ولا ولد ، اطرقت برهة عالجت فيها هواجسها ثم رفعت رأسها وامسكت بيده وقالت : لقد فقدت سندك

وفجعت انا الاخرى بزوجي فحزننا واحد فهل لك ان تكون لي واكون لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا معينا ولا مساعدا .

أدرك الشاب ما يدور في ذهنها فابتسم ابتسامة حزن وقال من أين لي ان اظفر بهذه الامنية وهذا المرض الذي يفتك بي ولايكاد يهدأ او يخف لقد نغص حياتي ، وأفسد عيشي وادنى اجلي .

قالت بلهفة وثقة : ستعيش ، وسأعالجك ولو كان دواؤك في آخر الدنيا احضرناه لك قال الشاب بحذر أنا أعرف دوائي واعرف اني لا اجد السبيل اليه ، قالت وما

دواؤك ؟ قال حدثني الطبيب ان شفائي في اكل مخ ميت لم تشرق عليه الشمس اي لم يمض على موته يوم واحد ومادام ذلك يعجزني فلا دواء ولا شفاء ولا امل .

ارتعدت الزوجة الشابة ، شحب لونها وصمتت طويلا تقلب الامر على وجوهه ثم رفعت رأسها وقالت : كن مطمئنا فدواؤك لايعجزني ثم رجته ان يعود الى هدوئه وسكونه وخرجت .

أخذت فأسا قاطعة ودخلت حجرة زوجها تختلس الخطى اختلاسا فلما ارادت اغلاق الباب خلفها صر صريرا مرعبا اقشعر له بدنها فجمدت في مكانها وقد احاطت بها رهبة الموت والوحشة والليل، ودارت عيناها في الغرفة فوجدت كل شيء ساكنا فتقدمت حتى دنت من السرير . رفعت الفأس لتضرب به رأس زوجها الذي عاهدته الا تتزوج بعده فاذا الميت يفتح عينيه ينظر اليها فهوت الفأس الى الارض وسمعت خلفها حركة فلما التفتت رأت الضيف الشاب والخادم والطبيب واقفين يحدقون بها فأدركت كل شيء .

نهض التاجر من سريره وقال لها : ايتها الزوجة الوفية جداً أليست المروحة اجمل من هذه الفأس ، أليست المرأة التي جففت تراب قبر زوجها خير من تلك التي تكسر بالفأس رأسه لتجعل من مخه دواء لحبيبها .

نظرت اليه ذاهلة ثم شهقت شهقة ذهبت معها روحها .

الحكاية الثالثة :

الضرة :

كان لرجل زوجة طيبة يحبها وكانت خرساء فضاق بصمتها فأراد الزواج فوافقته ولم تعارض وبدأت تجهز البيت لاستقبال ضرتها .

فلما حضرت الضرة محمولة على هودج شمت رائحة الطعام محروقا فقالت تعيب من طهته .. عيشها شايط (لاصق بالقدر)وطباختك ياعيش رعناء

وكانت الزوجة الطيبة في استقبالها فسمعت ما عابته فانفجرت غضبا وصاحت في وجه ضرتها عيشي لا شايط ولايط جاءت ترويحتك ترويحة المال والمسوطة بيد العيال ما ادري اي مقموع لقفها .

دهش الجميع وكان زوجها اكثر دهشة وفرحا حين سمعها تتكلم فالتفت الى العروس في هودجها فقال تزوجتك من اجل الكلام والحديث وها زوجتي تكلمت والحمد لله ، فارجعي الى اهلك بما جئت به فأنت طالق .

الحكاية الرابعة :

الزوجة الذكية والزوجة الغبية :

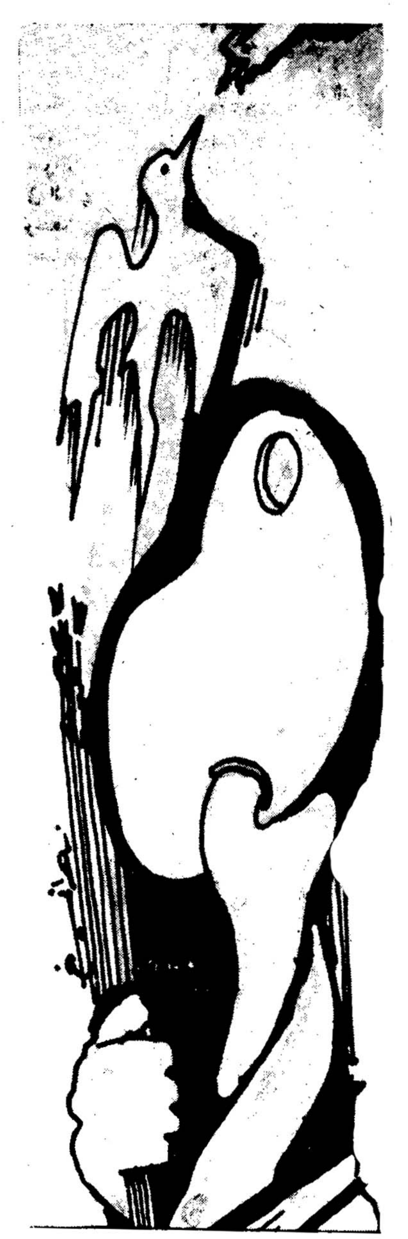
أراد صديقان ان يختبرا ذكاء زوجة كل منهما فأرسل احدهما مع طعام الغداء بطيخة واحدة ، ودعا صديقه الى الغداء . فلما فرغا من الطعام قال لزوجته : هاتي لنا بطيخة فلما جاءته بها قلبها بين يديه وقال : يا ام العيال هاتي اخرى بدلا من هذه وتخيري فحملت الزوجة البطيخة وغابت حينا ثم عادت بها ذاتها وهي تقول هذه خير من تلك فقال الرجل بعد ان قلبها بين يديه : بل ابحثي عن خير من هذه ياامرأة فحملتها ثم عادت بها وقالت هذه خير من تلك فنظر اليها ثم شقها وقطعها وأكلها مع صديقه .

وفي اليوم التالي ارسل الثاني الى بيته مع الغداء بطيخة واحدة ودعا صديقه فلما فرغا من طعامهما طلب الزوج من امرأته ان تحضر لهم بطيخة فجاءته بالبطيخة فقال يا ام العيال هاتي خيرا منها .. فنظرت اليه شررا وقالت انك تعلم انه لا يوجد غيرها فكيف تطلب خيرا منها اتظن انني قادرة على ان اجد لك مالايوجد واحضر لك ما تتمنى وتشتهي .. اطرق الزوج خجلا فقال الضيف عنه لابأس وفي هذه خير ايضا .

حسان الراوي *

الموت والخلود !

■ ابن سناء الملك ■



سوايَ يخافُ الدهرَ أو يرهبُ الرَّدَى وغيريَ يهوَى أن يعيشَ مُخلّدا

ولـكنني لا أرهبُ الدهرَ إن سَطَا ولا أحذرُ الموت الزؤام إذا عدا

ولو مدَّ نحوي حادثُ الدّهـر كفّه لحدّثتُ نفسي أن أمدَّ له يدا

توقُّدُ عَزمي يترك المـاءَ جَمـرةً وحليةُ حلمي تترك السـيفَ مِبْرَدا

وفـرطُ احتقـاري للأنامِ لأنني أرى كلّ عارٍ من حِلى سُؤْدَدى سُدى

وأظمأُ إن أبدى لى المـاءُ مِنّـة ولو كان لي نهرُ المجرّة موردا

ولو كان إدراكُ الهـدى بتذللٍ رأيتُ الهدى ألا أميل الى الهُدى

وإنك عبـدِي يازمانُ وإنَّني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

وما أنا راضٍ أنني واطىءُ الثّرى ولي همّـةٌ لا ترتضي الأفقَ مقعدا

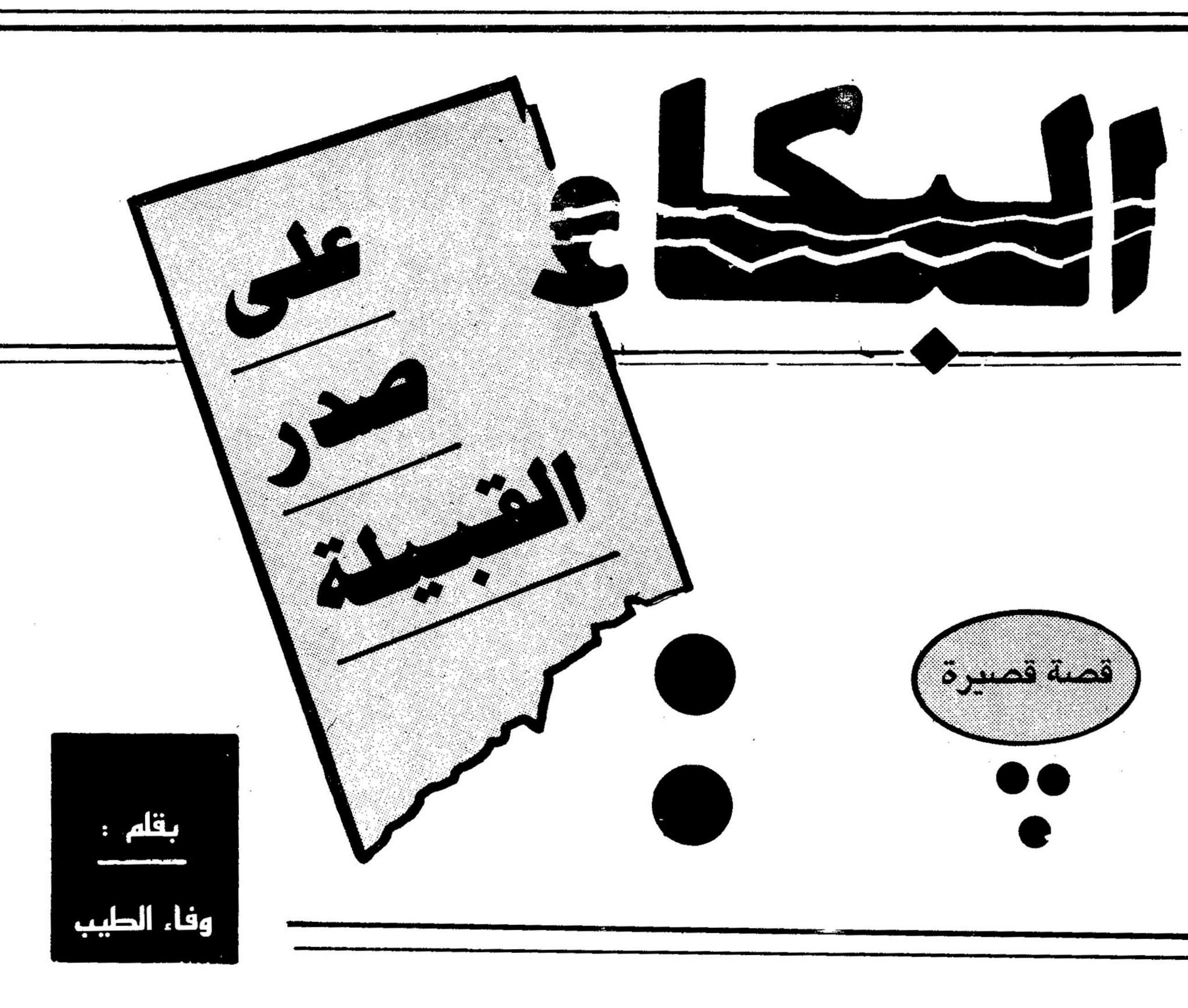
ولو علمتْ زُهْـرُ النجومِ مكانتي لخرّتْ جميعاً نحو وجهى سُجّـدا

أرى الخلقَ دوني إذ أرانيَ فوقهم ذكاءً وعلماً واعتلاءً وسُـؤددُا

وبذلُ نوالي زاد حتى لقـد غدا من الغيظ منـهُ ساكنُ البحر مَزْبدا

ولي قـلمٌ في أنملي إن هززتُه فما ضرني ألا أهـزَّ المهنّدا

إذا جالَ فوق الطِّرسِ وقعُ صريره فإن صليلَ المشرفيّ له صَـدَى



« شيء ما » يتهشم .. يتفتت .. ويتناثر الى الابد .. « احساس ما » يجعل لانفاسك الرتيبة وانت نائم صوت البوم الذى ينعق تلذذا بـاجواء الخرائب .. الخوف يقتلنى .. « ذعر ما » يحتلنى .. يمزقنى .. يسحقنى بينما انت تتمدد على سريرك كالاموات .. احيانا اخاف أن يتحول مخدعنا بهذا الليل الموحش الى قبر بشع وداقء ... اخاف ان يقام فيه مهرجان اسطورى تسمر فيه الاشباح وترقص رقصتها المثيرة .. اخاف أن يتحول كل شيء حولنا الى نعش خشبى يحملنا معا .. وجه الهندية الوثنية يطاردنى .. ينهش الدود جسدها بوحشية ألمحها تصرخ هلعا بعد أن أجهز الدود على زوجها الخامد الانفاس .. اصرخ .. واصرخ .. وتنساب انت فى ثنايا الرقاد وتتركنى وحدى مشنوقة الجفنين اغسل اقترافاتك بدموعى وجنونى وسؤالاتى ..

على شفا « هاوية ما » يستقر احساسي .. يسقط فى دوامة السؤالات الملحة .. من أسأل ؟؟ أسأل نعشك الذى ترقد فيه .. أم أسأل شخيرك الذى يعلو ؟؟

« سؤال ما » يدور فى خاطرى .. يترنح كثور مغمض العينين مقيد حول ساقيه مهجور .. سؤال فظيع يتلوى كالافعى ثم يلتف حولى .. ينهش لحمى .. وعظمى .. يلعق اثار دمى .. ينثر خصلات شعرى المبتلة .. تنام السؤالات فى حلقى كالدبابيس ..

« لماذا تزوجتنى . ولماذا أحببتها بعد أن تزوجتنى .. لماذا البعد ،بليس القبل .. أمن الرحمة أن تسحقنى مرتين .. أمن الانسانية أن تذبحنى مرتين ..؟؟ » .

اننى ماسألتك قبل الآن ..

ماعاتبتك قبل الآن .. ماستجوبتك قبل الآن .. ماستجوبتك عندما أصررت على أن تتزوج بى دون فتيات القبيلة لاننى احببتك ماعاتبتك لانك استهنت برأى أهلى وأهلك فى زواجنا لأننى احببتك .. ماشترطت مهرا وقصرا وعربة وسائقا لاننى احببتك .. لكنك فجأة هدمت كل شىء .. لماذا ؟ إننى ماسألتك حتى الآن عن علتك لاننى لا اجرؤ لا اقدر .. لا اطيق .. اجبن عن مواجهتك .

مع انه كان يمكن أن تذوب اقترافاتك فى بحور غفرانى .. كان يمكن أن اصفح أن انسى .. أن نتلو صفحة جديدة .. لاننى أحبك .. ومازلت احبك كان من الممكن جدا أن اتغاضى .. أن اتجاهل .. وأن اغفر .. لو أنها أى سيدات الأرض .. أى نساء الدنيا .. أى شهرزاد جميلة الا أن تكون (سناء) !!

« ياه .. أى مستنقع اخوض وحدى (يامعاذ) ؟ أى هاوية تجرفنى وحدى ؟ وأنا اسمعك وأسمعها .. اراك وأراها ..

تنحرنى لأجلها ليال وأيام يشنقنى خيط حريرى واه ينفذ من عينيك الوقحتين الى عينيها الناعستين يصعقنى تيار مجنون ينهمر من حروف شفتيك المخادعتين الى أذنيها النهمتين .. وتنسى أنها (سناء) .. وانها (سناء) يامعاذ وتهدم كل شىء .. كل شىء .. تنام فى ليل يلتهم صوت العاصفة هادئا وديعا كالأطفال لكننى اخاف .. ارقب ألسنة النيران تتراقص فى الموقد مثل سحالى طرية تنسجم مع سيمفونيات الريح .. ويصحو صراخى القديم كمخطوطة عتيقة تسحق عنها طلاسمها .. يوم أن اعلنت أنى احبك واعلنت تمردى على قرارات أبى وتوسلات أمى ومنطقيات القبيلة يوم أن قلت لهم « اننى أحبه كحبة قمح تعشق بيادر الصيف وتجوع للمطر » وصرخت بهم « ارجوكم لاتنحروا حبى قربانا للمنطق والمعقول .. لاتشعلوا نيران المدفأة بحطام قلبى .. ارجوكم خذوا عينى وتأملوا وجهه .. جرأته .. عذوبة عينيه .. دعونى أحبه بالطريقة التى تدفء قلبى » .

اما الآن « فبرودة ما » تجعلنى انتهز فرصة نومك لانسحب واتسلل بعيدا عنك .. « دفء ما » يجتاحنى عندما ألتحف بالصمت فى اعماق الليل .. اشعل فى اعماقه الثلجية موقدا .. اصنع فى اغواره السحيقة مرفأ .. واصغى الى أم تهدهد طفلها كلما أفاق مذعورا يتخيل أن العفاريت تطارده .. وينتحب قط قرب النافذة بينما يتحفز للوثب على احدى الاشجار !.. احساس لذيذ

ومخيف يتملكنى عندما يخترق الليل مساماتى .. ينفذ فى بمنتهى الهدوء .. يعبر مساحات الصمت والخوف .. يمتزج بأنفاس يحرك صراخى القديم فى عناد أبى .. فى توسل أمى .. فى طقوس القبيلة البليدة .

يوم أن ناقشتهم بضراوة .. جادلتهم ببسالة .. قلت لهم : « لماذا تحارب قبائل رفضكم قبيلة العشق التى سكنت أرضى ؟..

إننى لن أتزوج بسواه فلماذا تباركون عرسى بهذا الازدراء وهذا المضض ؟ ألا ترون كيف يبارك الحب قلبينا ..؟ » .

«ليل أخر » يسرقنى من صراخى القديم .. اغيب فى كهوفه الرمادية .. اتدحرج فى دهاليزه كطابة فى يد طفل عابث .. صيحات مجنونة تشق رداء الصمت الذى يحتوينى .. من يستعرض قدرته على الصياح فى بيادر الصمت ؟ ربما أنا ! انها كوتر مشدود فى آلة كمان قديم .. لكنها نفس نبرة صوتى وأنا أذيب فيها انفعالاتى القديمة .. واقذف بها كالحمى فى وجه أبى .. فى ضعف أمى .. وفى أشداق أهل القبيلة صارحتهم .. واجهتهم .. قلت لهم « لقد تزوجته وانتهى الأمر .. ولتحل على لعنتكم » ..

« ياه ماأفظع أن تكون لعنتكم (سناء) العذبة .. ومابشع أن تنحر لعنتكم حب (معاذ) الكبير فى قلبى .. من يصدق أن تكون لعنتكم أقسى من لعنة الفراعنة التى يزعمون ! لماذا (سناء) بالذات ! خط يدها ينهشنى .. يسحقنى .. يلوث الورقة الزرقاء التى تنام فى طيات وسادتك .. ضبطتك تتهجأها كطفل بليد .. ثم أخذت تتلوها بنهم .. فاحت رائحة عطرها المفضل فى عينيك .. فى اجواء الغرفة .. تسللت يومها الى غرفة أخرى لاتوسل اليك فى صمت أن تعشق نساء الدنيا .. أن تستميل اليك سيدات الأرض كلهن وأن تدع لى (سناء) .. ارجوك .. لماذا لاتفهم .. لماذا لاتريد أن تفهم أن تحاول .. وأن تتراجع .. لماذا لاتلين .. لم ترجم نفسك بالحصب مرتين ؟ يطاردنى فحيح صورتها المتكسر .. العذب .. من سماعة الهاتف .. فينساب كالزيت على جمرى الملتهب .. يشعلنى .. يحرقنى .. اعدو نحو مرآة الحمام .. اتطلع فيها .. لماذا هى وليس أنا ؟؟ مع أننى اجمل منها ؟ اغمس رأسى المشتعل تحت الماء .. ينزلق الماء على كفى لزجا كالطحالب فأغسل به وجهى .. يلتصق بوجهى سرب من الديدان الجائعة .. أحاول أن انتزع وجهى .. يداى كالمطارق تدقان على الجدار كفى .. كفى .. لم أعد احتمل .

من ينتزع قناع اللعن الذى ادمن سحنتى ..؟ لقد اسكنت وجهى بالتجاعيد على غير أوان .. نثرت خطوطا بيضاء على شعرى قبل الميعاد ! تريدون أن اغسل اقترافاته بدموعى كل يوم .. ثم انكفىء لألعق ذنبى فى أن احببته رغما عنى .. فى أن تزوجته رغما عنكم .. فى أن حاربتكم من أجله .. تريدون أن اعترف .. أن امضغ حروف الاستغفار وأن اجتر كلمات الندم امامكم .. اعرف .. اعرف .. اعرف .. إننى أتوب تحت قدميك ياأبى .. أننى اتوب على صدرك ياأم .. أننى اتوب فى عينيك ياأخى .. اننى الوذ بوجه القبيلة .. فقط ارجوكم .. اعيدوا الى (سناء) توأم روحى .. وخذوا عنى لعنتكم فانا لم اعد احتمل .

قسم

محمد يونس

أقسمت بيافا العربية — بتراب القدس وطبرية
باللد وغزة والرملة — وبكل الارض المحتلة
أنا منذ الآن فدائية

مزقت فساتين المخمل — فالخاكي أفضل بل أجمل
وحملت الراية والمشعل — وحضنت الصارم والمعول
وعزفت نشيد الحرية

لن ترزح في القيد زنودي — وتمرغ في الترب خدودي
أبدا .. فثباتي وصمودي — سيرسخ في الارض وجودي
ويهد بناء الوثنية

أقسمت برمح وحسام — أقسمت بصاروخ السام
لن أركع والنصر أمامي — والثورة زخم متنامي
تجتاح دنى البغي قوية

لن أخنع والحق يميني — لن أجبن والصبر قريني
لن أهزم والفوز يقيني — واباء الروح يغذيني
وسلاحي عزم وقضية

المسجد يا قوم ينادي — أشبالا لا تنطق بالضاد
وكنائس رهن الحداد — في ظل المغتصب العادي
تستصرخ فرسان أمية

ياموطن عز وفخار — يا كعبة مجد ووقار
يامربض أسد وضواري — لبيك فما الوهن شعاري
أبشر بدماء عربية

محمد يونس

نبضات الحياة

لدى الشاعر علي محمود طه

رمزي الحاج عقراوي

الشاعر الرومنطيقي علي محمود طه (1902 ـ 1949)

ولد في المنصورة ، درس الهندسة وعمل كمهندس للحكومة لمدة طويلة بعدها ، ثم اسندت اليه وظيفة في الأمانة العامة لمجلس الأمة المصري ، سافر مرارا الى أوربا في الصيف ، اذ شغف كثيرا بمناظرها الطبيعية المتنوعة . في سنة 1924 أصدر ديوانه ـ الملاح التائه ـ فذاع صيته كأحد الرومنطيقيين في الشعر العربي ، ثم أصدر خمسة دواوين شعرية أخرى كان آخرها في سنة 1947 ، تأثر كثيرا بآثار الرومنطقيين الغربيين ، خصوصا بفضل تعاونه مع الشاعر أحمد زكي أبو شادي (1892 ـ 1955) وجماعة (أبولو) .

« ومرحلة الرومانطيقية تبدو في أجلى مظاهرها في الفترة ما بين الحربين ـ العالميتين . ومن سمات الرومانطيقية ان التعارض والتوتر بين الشكل والمضمون قد اختفى كلية أو كاد ، وان المثل الأعلى للشعر فيها هو الغنائية وسيادة العواطف والأحاسيس الذاتية ، وهي أحاسيس قريبة الشبه مما تجد في الشعر الرومانطيقي الأوربي ، وتشمل الحزن والأشواق الغامضة والحنين الى براءة الطفولة والى المثل العليا البعيدة المنال وانفعالات الجزع الميتافيزيقي والحيرة والأسرار وشتى ألوان المجهول ، سواء في ذات الشاعر أو في مظاهر الطبيعة الغامضة خارجه . هذه المواقف والاتجاهات العاطفية الجديدة يرجع بعضها الى تقليد مباشر أو غير مباشر للشعر الرومانطيقي الأوربي ، كما يرجع البعض الأخر الى الموقف الثقافي والسياسي العام الذي وجد العرب فيه أنفسهم في ذلك الوقت ، ولا سيما في تلك البلاد التي كانت تفقد صفتها التقليدية بسرعة فائقة . ولا شك أنه يتعذر التمييز في هذا المضمار بين ما هو وليد التقليد والتأثر الأدبي وبين ما هو ثمرة الموقف الحضاري العام . ومهما يكن من شيء فان الظاهرة التي تسترعي الانتباه والتي لا شك لها دلالتها الحضارية هي ان هذا اللون الجديد من الشعر انتشر بسرعة مذهلة في مناطق شتى من العالم العربي ، فالحركة الرومانطيقية في الشعر العربي الحديث كان لها اتباع كثيرون بحيث يصعب على من يتصدى لعملية اختيار من هم يمثلونها أصدق التمثيل ان يتجنب التعسف . الا أن أي عرض لهذه مهما كان مقتضبا ، لا بد وأن يشمل الدكتور ابو شادي مؤسس مجلة « أبولو » في القاهرة ، تلك المجلة التي أسدت خدمة عظمى لقضية الشعر العربي الحديث ، والدكتور ناجي صديق أبو شادي وزميله ، وعلي محمود طه بين شعراء مصر ، وأبو شكبة في لبنان وابو ريشة في سوريا والشابي في تونس والتيجاني في السودان ، كما يشمل نعيمه وأبو ماضي وعريضة وكثيرين غيرهم في المهجر الأمريكي . أما العراق فقد جاء الشعر الرومانطيقي فيه متأخرا ولم يقدر به أن يعمر طويلا ، اذ يمكن القول بأنه ظهر من خلال الحلقة الرابعة من القرن في نتاج شعراء مثل نازك الملائكة والسياب (في مرحلة نتاجه الأولى) ، غير أنه لم تشرف الحلقة الخامسة الا وقد اتضحت علامات السضيق بحدوده .

ونستطيع الجزم بأن جيل الشعراء الرومانطيقيين العرب الذين بلغوا مرحلة النضج في فترة ما بين الحربين قد وقعوا جميعا تحت تأثير شعراء المهجر الأمريكي ، ولا سيما شعراء المهجر الشمالي الذين ساهموا الى حد بعيد في تحرير الشعر العربي الحديث . فقد ساعد هؤلاء الشعراء على ايجاد مفهوم جديد للشعر العربي ، مفهوم أصناف بعدا روحيا الى أبعاده . كما نبذوا اللهجة الخطابية التقليدية وآثروا ما سماه المرحوم الدكتور مندور بالشعر المهموس ، فركزوا شعرهم على تجارب الانسان الذاتية وعلى موقفه ازاء الطبيعة وازاء القضايا الانسانية الأساسية ومشكلات الوجود . كذلك ادخلوا في الشعر العربي موضوعات وصورا من الكتاب المقدس فأثروا بذلك الشعر العربي ووسعوا من أفقه . هذا بالاضافة الى اهتمامهم بالبحور القصيرة وبالتوشيح وتعدد القوافي والتي تحررهم الشكلي العام . حقا ان

آراء بعضهم المتطرفة لم تلق كبير صدى في العالم العربي ، كما أن محاولة بعضهم نبذ التراث العربي القديم كانت موضع هجوم الكثيرين ، وأخذ عليهم ان لغتهم لم تكن سليمة بالقدر الكافي ، الا أنه ما من باحث منصف يستطيع ان ينكر انهم لعبوا دورا خطيرا في تكوين الاحساس الأدبي في العالم العربي الحديث ـ كما يؤكد ذلك الدكتور مصطفى بدوي في مقدمته الرائعة لكتابه القيم الموسوم بـ ـ مختارات من الشعر العربي الحديث ـ [1]

1) علي محمود طه ، هذا الشاعر الرومانطيقي الرقيق الذي يهدي ديوانه (الملاح التائه) » إلى أولئك الذين يستهويهم الحنين الى المجهول ! والى التائهين في بحر الحياة ! والى رواد الشاطىء المهجور ! » يمكننا أن نستشف بعضا من خبايا شخصيته الأثيرة ، ومكنونات نفسيته الفضة اليانعة ، ورهافة شعوره الزاخر بالعواطف النبيلة ، من أول قصيدة له ضمن ديوانه المذكور بعنوان (ميلاد شاعر) . . .

حينما شارفت به أفق الأر
ض زها الكون بالوليد الصبي
وسبى الكائنات نور محيا
ضاحك البشر عن فؤاد رضي
صور الحسن حوّم حول مهد
صفّ بالورد والعمار الزكي
من تراه ؟ فرن صوت هتوف
من وراء الحياة شاجي الدوي
إن ما تشهدون ميلاد شاعر !

2) فإذا تمرد المحبون على حكم الهوى ، وضاق كيوبيد بصراخهم وبكائهم فتح لهم باب ديره فخلصوا منه ناجيه . وانطلقوا هاربين من اسره ينشدون السلو النسيان في حياة اصبحت تنكرهم وكأن لم يتصلوا بها ، وهاموا في عالم كأنما يجهلهم ويجهلونه ، هنالك يرجع الهارب نادما مأخوذا بسحر تلك الأيام التي كانت تشرق عليه من خلال ديره القديم .

فمن قصيدته (رجوع الهارب) نقرأ . . .

وصحوت من خبل وبي مما أرى
إطراق مكتئب وصمت حزين
فافتح لي الباب الذي اغلقته
درني ، وهات القيد غير ضنين
دعني أروّ القلب من ضمر الرضى
وأنم على فجر الحنان عيوني
واعد الى أسر الصبابة هاربا
قد آب من سفر الليالي الجون
عاف الحياة على نواك طليقة
وأتاك ينشدها بعين سجين !

2) قبلة من ثغرها الباسم تمحو كل ما بنا ، وتوارينا عن الناس وعن دنيا العذاب ، وتنسي قلوبنا ما جرعت من سم زعاف ، قبلة تمزج انفاسها بقلوبنا المذابة . . . فلتقرأ معا قصيدته (قبلة) . . .

قبلة من ثغرك الباسم دنيا وحياة
تلتقي الروحان فيها والمنى والصبوات
لغة وحدت الألسن فيها واللغات
نبعها القلب ومجراها الشفاه النفرات

4) وإذا ما الشاعر يزور القرى والأرياف فأن الماء يداعب ظل الشجر ، وتغازل السحب ضوء القمر ، وتردد الطيور أنفاسها خوافق بين الندى والزهر ومطوقة بالهوى تنوح وتشكو القدر وتناجي الهديل وعلى النهر يمر ثقر النسيم يقبل كل شراع عبر ، حيث الشاعر يقول في قصيدته (أغنية ريفية) .

وأطلعت الأرض من ليلها
مفاتن مختلفات الصور
هنالك صفصافة في الدجى
كأن الظلام بها ما شعر
أمر بعيني خلال السماء
وأطرق مستغرقا في الفكر
اطالع وجهك تحت النخيل
وأسمع صوتك عند النهر
وتعجب من حيرتي الكائنات
وتشفق مني نجوم السحر
نامضي لأسترجع مستشرفا
لقاءك في الموعد المنتظر !

5) ويعتبر شاعرنا أن الحسن الفتان هو (الوصي الخالد) الذي لولاه ما جاشت الدجى بهمومها ولا أفتر عن بسماتها تقر الصباح الضحوك ، وهنا يتحدث الشاعر عن الجمال الرائع البديع ، بصور شعرية وواقعية خصبة وأخاذة جدا . . .

فوا أسفا يا حسن للحظة التي
تطيش لها الأحلام من وثباتها
ووا أسفا يا حسن للفرقة التي
يعز على الأوهام جمع شتاتها

ومـا هي الا الصمت والبـرد والـدجى
ودنـيـا يـشـيـع المـوت في جـنـبـاتهـا
ولكـن ردن الـنفس الـتي كـنـت حـبـهـا
ونـاقـت هـذا الـسـحـر في كـلمـاتهـا
مضت غـير شـعـر خلدت فيـه وحيـهـا
اليـك فخـذ يـا حسن وحي حيـاتهـا !

***

6) في قصيدة ـ النشيد ـ وعندما يظلل الوادي مساء كان ثمة طيف في الدجى يجلس قرب شاعرنا وفي يديه زهرة تقطر ماء عرفت عيني الشاعر بها أدمع قلبه الولهان المضطرم بالهون والشباب فحدثه الشاعر من أنت ؟ فلباه مجيبا نحن يا صاح غريبان هنا ، قد نزلنا السهل والليل الرهيب ، حيث ترعاني وأنا أرعاك !
قـلت يـا طـيـف أثـرت الـنـفس شـكـا
كـيـف أقـبـلت ؟ وقـل مـن دعـاكـا ؟
قـال أشـفـقـت مـن الـلـيـل عـلـيـكـا
فـتـتـبـعـت الى الـوادي خـطاكـا
*ودنـا مـني وغـنـاني الـنـشـيـدا
فـعـرفـت الـلحن والـصـوت الـوديعـا
هـو جـي هـام في الـلـيـل شـريـدا
مـثـلما همـت لـتـلقـاك جمـيـعـا

***

7) وفي قصيدة (الملاح التائه) يتقمص شاعرنا ثوب الملاح الذي يطوي الشراع ويجدف بالسفينة وجهة الشاطيء ، فقدا قذفا واندفاعا تأخذنا موجة الأيام . . .
فـتـمـهـل تـسـعـد الـروح بمـا
وهمـت أو تـطرب الـنـفس سـمـاعـا
ودع الـلـيـلة تمـضـي أنها
لم تـكـن أول مـن ولى وضـاعـا
سـوف يـبـدو الـفـجـر في آثـارهـا
ثـم يمـضـي ودواليـك تـبـاعـا
هـذه الأرض أنـتـشـت ممـا بهـا
فـقـضـت تحـلم بـالخـلد خـداعـا
قـد طـواهـا الـلـيـل حـتى أوشـكـت
مـن عـمـيـق الـصـمـت فـيـه أن تـراعـا

***

8) والآن لنولف (غرفة الشاعر) حيث نرى فيها أن شاعرنا كئيب جدا وقد مضى الليل وما زال غارقا في شجونه ، مسلما رأسه الحزين الى الفكر ، وقد ذبلت جفونه للسهد ، ويده تمسك اليراع وأخرى يمرها فوق جبينه في ارتعاش ، وفمه ناخب به حر أنفاسه التي تطغى على أنينه الضعيف . . .
فـقـم الآن مـن مـكـانـك واغـنـم
في الـكـرى غـطة الخـلي الـطروب
وألـتـمس في الـفـراش دفئـا يـنـسـ
يـك نهار الأسـى ولـيـل الخـطوب
لـسـت تجـزىء مـنـن الحـيـاة بمـا حمـ
لـت فـيـهـا مـن الـضـنى والـشـحـوب
انها لـلـمـجـون والخـنـل والـزيـ
ف ولـيـسـت لـلشـاعـر المـوهـوب !

***

9) وحينما يدخل الشاعر في (مخدع مغنية) الذي يشيع الخيال في جوه المثير ، ويرف الحسن والسحر والهوى فيه والجمال . . .
ونـسـيـم مـعـطر خـفـقـت فيـ
قـلوب ، ورفـرفـت أرواح
ومـنى كـلهـن أجـنـحـة تهـفـ
و ودنـيـا بهـا يـدف جـنـاخ
ومـن الـزهـر حـولهـا حـلقـات
طـاب مـنـهـا الـشـذا ورق الـنـفـاح
حمـلت كـل بـاقـة دمـع مفتو
ون كـما تحـمـل الـنـدى الأرواح
وهـي في مـيـعـة الـصـبـا يـزد هـيـهـا
ضـحـك لا تمـلـه وضـراح !

***

10) وهنا تبدد قيثارته أنغامه الشجية وتنسى ألحان غرامه حيث تمر الليالي وقيثارته كانت مؤنسته وعزاء نفسه المؤلمة ، وفي قصيدة (قيثارتي) نقرأ ما يلي . . .
عـل الـذي غـنـيـت عـرش جمـالـه
وطـفـقـت أرقـب أفـقـه المـتـسـامـي
تـشـجـيـه ألحـاني فـيـعـدني بـه

طيف يضن علي بالألمام

مالي أراك جدت بين أناملي

وعصيت أناتي ودمعي الهامي

خرساء لا تتلو النشيد ولا تعي

ـرّ الغناء ولا تعيد كلامي

يغري الكآبة بي ويكسف خاطري

أني أراك حبيبة الأنغام

***

11) هذه ذكريات قديمة يصور الشاعر فزعه من طروقها ذات ليلة . فيحاول انكارها وتجاهل أمرها وهي لا تصدق دعواه فتصر على موقفها منه ، ويمضي الشاعر في محاولته ليردها عنه في مناجاة محزنة وضراعة مؤثرة وذلك في ـ قصيدته (أيتها الأشباح) . . .

لم أقبلت في الظلام إليّ ؟

ولماذا طرقت بابي ليلا

لات حين المزار أيتها الأشـ

ـباح فامضي فما عرفتك قبلا ؟

أتركيني في وحشتي وودعيني

في مكاني بوحدتي مستقلا

لست من تقصدين في ذلك الوا

دي فقدرا ان لم أقل لك أهلا !

***

لا تطيلي الوقوف أيتها الأشباح فامضي فما رأيتك قبلا

أو لم تسمعي ؟ جهلتك من أنت ؟ فعودي فما كذبتك قولا !!

***

12) أما (قلب الشاعر) فهو كالنجم في خفوقه وفي وميضه حيران يتبع حيرة الأرض ومصارع الأيام والشعوب ، مترنحا كالعاشق الثمل ، نشوانا من الألم ومن الأمل ، مستهزئا بالكون والزمن . . .

تلك السماء على جوانبه

بحر الحياة الغائر الزّبد

كم راح يلتمس القرار به

هيمان بين شواطىء الأبد

يهفو على الأمواج صورته

وشعاعه اللماح في الغور

نفذت الى الأعماق نظرته

فإذا الحياة جلية السر

***

12) و (على الصخرة البيضاء) يصف الشاعر مشهدا من مشاهد الصراع بين الطبيعة والانسان وهي مأساة وقعت في غروب شتاء على الشاطىء الممتد بين بحيرة المنزلة وبحر الروم . . .

لقد غرقوا في إثر أكواخهم به

وما لمسوا من حكمه عفو قادر

وسجاهم باليم زاخر موجه

وأنزلهم منه فسيح المقابر

أضح أيها الوادي ! أما منك صرخة

يدوي صداها في عميق السرائر ؟!

أتعلم سر الليل ؟ أم أنت جاهل ؟

بلى أنه يا بحر ليل المقادر !!

***

14) في قصيدة (الله والشاعر) يبحث الشاعر مجدا ومخلصا عن آيات الله سبحانه وتعالى في زوايا الكون وفي خبايا الأرض الواسعة وفي مخلوقاته العجيبة والغريبة ، أي أنه يريد الوصول الى أسرار الحياة الدفينة التي لم تكن باستطاعته اليوم بحقائقها ، فيبدأ الشاعر بتهدئة فزع الأرض من سؤال دون جواب ! طالما حير العلماء العباقرة وغيرهم منذ الأزل ولحد الآن ـ دون جدوى ـ محاولا أن يستشف ما وراء السماء . . . ؟!

يا أرض ناديت فلم تسمعي

أنكرت صوتي وهو من قلبك

لا تفرضى مني ولا تفزعي

من شاعر شاك الى ربك !

أيتها المحزونة الباكيه

لا تيأسي من رحمة المنقذ

لعل من آلامك الطاغية

إذا دعوت الله من منقذ !

فابتهلي لله ، واستغفري.

وكفّري عنك بنار الألم

وقدّمي التوبة ، واستمطري

بين يديه عبرات الندم !

15) وعلى (صخرة الملتقى) التي تجاورها الصحراء تستشرق البحر وبالقرب من القلوات يقر المحيط . . . حيث يأتيها الشاعر بعد الفراق الطويل يشكو اليها من الحياة المضجرة المملة كالشادي الذي نسل هبوب العواصف ريش جناحيه وكالشريد الذي ضل السبيل في صحاري العيش الثقيل ، تلك الصخرة التي لا يسميها الشاعر بصخرة الملتقى بل يسميها صخرة المأساة !

في ثراها الغبي وشدت أحلا
مي وماضي الهني من أوقاتي
أنا قيثارة جفتها الليالي
في زوايا النسيان والفضلات
وأرثت أوتارها فهي تبكي
من شجاها صبية النغمات
أنا طيف الماضي على صخرة الآ
باد ، أستشرف الزمان الآتي
وورائي الصحراء وادي المنايا
وأمامي المحيط لجّ الحياة
بين عبريها توت غر أيا
مي وصال الوضيء من ليلاتي

***

16) وتضج الأنجم الوضيئات في آفاق (عاصفة في جمجمة) وثمة ليل يشتكي الأبد المستديم فمضت تصرخ من أعمق أعماقها ـ أبهذا الليل نبه الذين قد رقدوا وناموا طويلا : . . . و . . . .

لو تمشت بمناياها الرجوم
لأستحال الخلق والكون سدى
ورأيت الأرض حيرى والنجوم
تزرع الجو على غير هدى

***

17) وعندما يشاهد الشاعر روآية سينمائية تصور مشاهد (القطب) الشمالي وكانت الأنباء تتوالى عن رحلات المكتشفين له في ربيع عام 1927 فيصف لنا الليل هناك وأديم الثلج الطافي وبحار جليدية شاسعة بغير أمواج أو ضفاف وجبال شاهقة من الثلوج المتراكمة ذات السفوح الرائعة وصحاري جليدية لا تنتهي أطرافها كلها سكون وصمت مترامي الحدود . . .

لا ترى للنهار والليل في وا
ديه يوما من دورة واختلاف
أو تحس الأرواح قصف الرياح الـ
هوج فيه أو هدرة الرجاف
لا أصطفاق الغصون ولا هذر الطيـ
ـر ولا أنه النمير الصافي
عريت أرضه من العشب الأخـ
ـضر والدوح سابغ الألياف

***

18) هنالك بين الأمواج الزرقاء يمتد برزخ من الرمال بين شاطىء البحر الأبيض وبحيرة المنزلة حيث تشرف أكواخ (أشتوم الجميل) من بوغازها الصامت على آثار قلعة متهدمة ، جلس الشاعر عليها أيام صباه يمرح في أمسية هانئة بين رمال وصخور وأمواج ، حيث زار الشاعر برفقة بعض أصدقائه المخلصين والأوفياء ذات مساء قريب في جو عاصف فهاجت بهم ما هاجت من أحلام وآلام اطردت في سياق قصيدة (الأمسية الحزينة) تحية الروح الروح الى أمسيتها المخزونة . . . و . . .

يا من قتلت شبابي في غضارته
ورحت تسخر من دمعي وأناتي
حرمت أيامي الأولى مفارحها
فما نعمت بأوطاري ولذاتي
فدع فؤادي مخزونا يرف على
ماضي ليالي وانعم أنت بالآتي
دعني على صخرة الماضي لعل بها
من الصبابة والتمنان منجاق !

***

19) و (الفن الجميل) ضارب في الخيال وهو فجر النبوغ يصدح فيه كل من أطلق وجدانه الهوى والمراح ، وسماء للشاعر الفذ منها يستقي شعره وحيه وبيانه . . المستفيض . . .

وهو قيثارة الخلود عليها
يعزف الطير في الربى ألحانه
وأنا الشاعر الذي افتن بالحسن
وأذكت يد الحياة أفتنانه
معهدي هذه المرُوج وأستا
ذي ربيع الطبيعة الفينانه
وأزاهير حانيات على النهر
يقبلن في الضحى شطاته

***

20) والموجة المسحورة من البحور الخفية التي تغمر القلب بالخيال الخصب الغاصر تثور وتصخب من (الشاطيء المهجور) الذي ايقظ في نفس الشاعر فتون ذكريات من الشباب الفض اليانع الغرير . . . و . . .

انها ذكريات أمسية مر
ت وأيام غبطة وسرور
وبريء ابتسامة في فم الأيا
م كانت غراء قلب كسير
قد طواها النسيان الا شعاعا
غمر الروح في بقية نور
وهي مأساة حبه صورتها
ريشة الليل مبدع التصوير
مثلتها لعينه الآن شطآ
ن وموج يئن تحت الصخور !

***

21) ان شاعرنا (عاشق الزهر) الذي يتمنى من كل قلبه لو كان كالفراش له أجنحة يهفو بها في الفضاء الواسع هيمانا حرا طليقا يدف للنور عند ثروته ، ويرجع بسناه نشوانا ممتلئا نشاطا وحيوية ، وحبا للحياة وعشقا لأسرارها العميقة . . .

فليحمني الحسن زهر جنته
وليقضي العمر عنه حرمانا
ما كنت لولاه طائرا غردا
ولو جهلت الغناء ما كانا !

***

22) وفي (انتظار) شاعرنا لحبيبته مولها متوجا مضطربا حيث يطول . . انتظاره في الظلام ولم تزل عيناه ترقبان كل الأطياف والاشباح العابرة ، ويطير سمعه صوب كل رنة أو خفقة في الأفق القريب ، وروحه ترف فوق انفاس الروابي فلعلها تكون نفس الحبيبة الزائرة . . .

حتى إذا حان الرحيل هتفت بي
فوقفت واستبقت خطاك نواظري
وصرخت بالليل المودع باكيا
ويداك تمسك بي وأنت مغادري
يا ليتنا لم نصح منك وليتها
ما أعجلتك رضى الزمان الدائر
وكأنني ما كنت إلفك في الصبا
يوما ولا كنت الحياة مشاطري
ونسيت أنت وما نسيت وأنني
أنت وما نسيت وانني
لأعيش بالذكرى . . . لعلك ذاكري ؟!

***

23) الليل الداجي ، والوحشة والكآبة ، والقلق والأحزان ، ظلمات من فوقها ظلمات ، وعالم من ضباب ، وكواكب غرقوا ، وأنين الحروع الهياب ، والميلاد والموت ، ومثوى الهموم وعبء الحياة الثقيلة ، كل هذه المعاني تضطرم في جوانح شاعرنا حيث يصبها جميعا (الى البحر) فيقول . . .

أنا وحدي هيمان في لجك الطا
مي غريق في حيرتي وارتيابي
أرمق الشاطىء البعيد بعين
عكفت في الدجى على التكاب
فواء في مسمعي من دراه
من سقامي ورحمة من عذابي
فأنا فيك أطرح الآن آلا
مي وعبء الحياة والأحقاب !

***

24) هذا وقد تأثر شاعرنا بالشاعر الفرنسي الراحل ألفونس لامارتين ، حيث يترجم له احدى قصائده الشعرية الخالدة المعنونة بـ (البحيرة) وتكادهذه الترجمة العربية للقصيدة بطبيعتها وخصائصها الذاتية والفنية تفوق ، القصيدة نفسها المنظمة اصلا باللغة الفرنسية . . . فلتقرأ بعض ابياتها معا . . .

وليكن في النسيم ما هب سار
يه يجوب الشطآن نحوك جوبا
في جبين النجم اللجيني يلقي
فضة الضوء في مياهك ذوبا
وليكن في شتيت ما تسمع الأذ
ن وفيما نراه عينا وقلبا
ليكن هاتف من الصوت يتلو
(قد أحبا وأخلصا ما أحبا) !

هامش

(1) مطبعة جامعة اكسفورد / دار النهار للنشر ش . م . ل

عقرة / العراق 1969 بيروت ـ لبنان